الدكتور أحمد زياد محبّك

يوم .. لرجل واحد

قصص قصيرة

منشورات اتحاد الكتاب العرب

١٩٨٦

حُقوق الطبع والاقتباس والترجمة
محفوظة لاتحاد الكتّاب العرب

صمم الغلاف
زهير حبيب

مقهى ٢٠٠٠

حين دخل ابني بسيارته في الشارع المؤدي إلى المقهى أخذت أرسلت بصري عبر زجاج السيارة إلى نهاية الشارع، أستشرف المقهى، متشوقاً إلى رؤيته.

وقبل أن نبلغه، قال لي:

– **إذا رأيت المقهى فلن تعرفه، وإذا عرفته فسوف تستاء كثيراً.**

– **ولماذا ؟**

– **لأنه تغير، وأنت ألفته على شكله القديم.**

– **لا تقل هذا، فأنت تعرفني جيداً، في العام الماضي رأيتني أمام أحدث أجهزة المعالجة الفيزيائية في مستشفى والاس، سبقتك إلى فهمها، والتلاؤم معها، هل تنكر ذلك؟!**

فأجاب بهدوء:

– **لا بُدَّ من الإقرار يا أبي بأنك في شباب دائم.**

وصمتُّ على مضض، وأنا أرسل بصري إلى أمام، مستشرفاً المقهى.

لم يُتَحْ لي أن أحضر حفل افتتاح مقهى ٣٠٠٠ على الرغم من بطاقة الدعوة التي وجهها إليّ صديقي صاحب المقهى، فقد كنت ملازماً الفراش، إثر وعكة ألمّت بي، وكانت أحد مظاهر الهرم والعجز، وقد بالغ ابني في تأكيد ضرورة لزومي الفراش، وبعد شيء من التحسن، استطعت إقناعه برغبتي في زيارة المقهى، ولقاء أصحابي القدامى، وقد وعدته ألا أدخن شيئاً من السكائر، وألا أتناول شيئاً من الشاي أو القهوة، ووضعت في جيبي علبة الدواء، وخبأت سيكارتين في الجيب الداخلي للمعطف، وعزمت على احتساء قهوة.

وعلق بصري بالمقهى، وقد أشار إليه ابني.

مركبة فضائية رصاصية اللون، ذات نوافذ ضيقة، وباب يوحي بأنه محكم الإقفال، ولكنه مفتوح، وعلى الباب وقف تمثال لرجل يرتدي بزة ارتياد الفضاء.

لم أدهش كثيراً، فقد تابعت ما كتبته الصحف المحلية عن المقهى، وعلمت منها أنه قد اتخذ شكل مركبة فضائية، ولكني فوجئت بالتصميم، وأعجبت به الإعجاب كله.

وفوق الباب كتب: "**مقهى ٢٠٠٠**" بنوع من الخطوط لم أعرفها من قبل، جديدة، نافرة، مضيئة، متعددة الألوان والظلال والأشكال والأبعاد.

وأوقف ابني السيارة أمام المقهى، فقلت له، وأنا أفتح الباب وأهم بالنزول:

– **ارجع إليّ بعد ساعتين.**

فقال لي سائلاً:

– **يبدو أنك ستكتفي بزيارة أقرب الكواكب؟!**

فأجبته:

– لا، سأكتفي بالدوران حول الأرض، لا تنس أن هذه هي رحلتي الأولى.

ومضيت إلى المقهى، عبرت باب المركبة الفضائية، ودخلت.

منصة دائرية تتوسط المقهى، وحولها مقاعد تحيط بها، وقد امتلأ أكثرها بالرواد، ومعظمهم من الشباب، كما توزعت مقاعد أخرى حول الجدران، وقد اتخذ المقهى من الداخل شكلاً دائرياً. في عمق المقهى نجمة كبيرة، مشعة، متألقة، ذات واجهة زجاجية شفافة، يقبع وراءها صديقي صاحب المقهى، ومعه شخص يتحدث إليه بمودة.

حارت قدماي أين تذهبان؟! ولكنني تذكرت أني أمام مغامرة جديدة، وعليّ ألا أبحث عن ركني القديم، ومقعدي المألوف، فتوجهت إلى أحد المقاعد المحيطة بالمنصة، وقعدت.

كانت أمامي على المنصة عشرات أزار التحكم، وجهاز اتصال، ولوحة عرض تلفزيوني، وأذرع قصيرة للقيادة والتبديل والتحويل والتغيير، ومصابيح صغيرة مختلفة الأشكال والألوان والحجوم، وهو ما لم أشهد له مثيلاً حتى في غرفة المعالجة الفيزيائية، في مستشفى والاس بلندن.

خشيت في البدء أن أمس شيئاً مما أمامي، ولكني لم ألبث أن وضعت يدي على اللوحة، حتى المرفق، واتكأت، فقد كانت تلك الأشياء جميعاً مرسومة رسماً.

سماء المقهى مزينة بكواكب المجموعة الشمسية، تتوسطها الشمس، وقد تدلت من السقف، على شكل مصابيح مضاءة، وعلى الجدران آلاف النجوم الكبيرة والصغيرة، بعضها يضيء، وبعضها ينطفئ، في تعاقب وتتابع وتداخل، وأكبر تلك النجوم النجمة التي تتصدر المقهى، والتي تشكل واجهة غرفة صاحب المقهى، وهو يبدو من ورائها غارقاً في الحديث مع ضيف، يضحك ويتحدث ويشير بيديه، ولكن موجة من سعال حاد تنتابه، غريب هذا السعال، فهو دوني بنحو عشرين سنة، وقوي البنية.

أخرجت سيكارة من جيبي، أشعلتها، وأخذت أنفث الدخان.

أكثر الرواد من الشباب، الرواد الشيوخ القدامى عافوا المقهى، كما يبدو، بعد أن تغيرت ملامحه، وما هؤلاء الرواد إلا شباب يدفعهم الفضول إلى اكتشاف مركبة الفضاء، ومن المؤكد أنهم لا يطيلون المكث، ولعلهم لا يعيدون التجربة.

حاولت أن أزحزح المقعد، وألتفت، وإذا المقعد ثابت، مشدود إلى الأرض، وتذكرت أني في مركبة فضائية، ولست في مقهى، ولكن هل يسمح بالتدخين في مركبة فضائية؟!

وتذكرت السيكارة، بحثت عن منفضة على المنصة فلم أجد، نظرت إلى الآخرين، رأيت أكثرهم يدخنون، وتنبهت إلى أحدهم، كان ينفض رماد سيكارته على الأرض، أعدت النظر إلى المنصة، فأدركت أنه من غير المعقول أن أنفض الرماد فوق أزرار التحكم، ومقابض القيادة والتوجيه والتحويل والتغيير، فنفضت الرماد على الأرض.

وفتح باب في الجدار، لم أتبين فيه من قبل موضع باب، وخرج منه رائد فضاء حقيقي، يرتدي خوذة ذات فتحة زجاجية للوجه، وخرطوم للتنفس، كما يرتدي بزة فضية اللون، عريضة، وعلى ذراعه عدة ساعات لقياس الحرارة والضغط والوقت، ولكن يبدو أنها قد رسمت رسماً، وهو يحمل صينية فيها كؤوس شاي، وفناجين قهوة، هي الفناجين والكؤوس نفسها التي كنا نراها من قبل في المقهى، وأخذ رائد الفضاء بالتنقل بين رواد المقهى، بخطا بطيئة ثقيلة، فقد كانت قدماه تغوصان في حذاء كبير، يبدو أنه من معدن، وكان يصدر صوتاً آلياً مزمجراً، وفي أثناء تنقله، يصطفق الشاي في الكؤوس ويتقلقل، ووصل إلي، فتناولت فنجان قهوة، ووضعته على المنصة أمامي، فوق لوحة العرض، كما رأيت الآخرين يفعلون.

وفي أثناء تناولي فنجان القهوة من الصينية، لاحظت ثقباً صغيراً في البزة التي يرتديها رائد الفضاء، وفي موضع الصدر، وقد كتب فوق الثقب: "**ضع النقود هنا**" فأسقطت في الثقب بعض القطع النقدية، وتحرك رائد الفضاء، مبتعداً عني.

وقبل أن أنهي فنجان القهوة، نهض ضيف صديقي صاحب المقهى، ثم خرج، وكان صديقي قد نهض لوداعه، ويبدو أنه رآني، فأشار إلي، فنهضت إليه، وعبرت الباب الذي كان نجمة كبيرة، ودخلت غرفة صديقي صاحب المقهى، هي نفسها حجرته الصغيرة، لم تتغير، ولكن واجهتها المطلة على المقهى هي وحدها التي تغيرت.

وقعدت على كرسي صغير، أمام منضدة صديقي، وأخذ يحدثني عن نفقات تغيير شكل المقهى، وما كلفه الأثاث والتصميم، ثم أضاف:

– **بصراحة، كان التصميم يتضمن أن يكون مكان إعداد القهوة والشاي مفتوحاً على المقهى، وأن يزود بأحدث الآلات، ولكني اكتفيت بما ترى، وأبقيت مكان إعداد القهوة والشاي مثلما كان، وجعلته وراء باب مشقوق في الجدار.**

وقدم لي فنجان قهوة، كما قدم لي سيكارة، وحدثني كثيراً عن التطور وأكد لي أن عصرنا هو عصر الفضاء، ومن الضروري مجاراة روح العصر.

وحين نهضت أريد الخروج، وقف يودعني، ثم قال:

– **أشكر زيارتك للمقهى، فأنت الوحيد من الزبائن القدامى الذي استطاع أن يقدر معنى التطوُّر الكبير الذي طرأ على المقهى.**

وانتابته موجة سعال حاد، غالبه بصعوبة، ثم أضاف:

– **أنا أعذر الزبائن القدامى، فهم من جيل قديم لا يستطيع أن يجاري التطور، وعلى كل حال، فقد كسبت زبائن جدداً، وهم شباب، إنهم حقيقة رواد.**

وهززت يده مصافحاً، ثم قلت له:

– أنصح لك بزيارة ابني، ومستشفاه غير بعيد عنك، فهذا السعال مجهد كثيراً، وخطر، وإذا كنت ما تزال تعترف بي طبيباً، على الرغم من تقدمي في العمر، فاسمح لي أن أقدم لك علبة الدواء هذه.

وقدمت له علبة الدواء التي كانت في جيبي، ثم قلت له:

– يمكنك استعمال هذا الدواء مؤقتاً، فأنا ينتابني أيضاً مثل هذا السعال.

ثم ودعته وخرجت.

وأمام باب المقهى أشرت إلى سيارة أجرة، ودخلت فيها، وطلبت من السائق أن يمضي بي إلى البيت، وانطلقت بي السيارة، من غير أن ألتفت إلى المقهى.

وأمام إشارة ضوئية وقفت السيارة تنتظر النور الأخضر، والتفتّ، وإذا لافتة معلقة فوق محل تجري فيه عمليات تصليح، وقد كتب على اللافتة: "**ترقبوا افتتاح مقهى ٢٠٠١**".

وأضاء النور الأخضر، وانطلقت السيارة، فطلبت من السائق أن يغير اتجاهه إلى أي مقهى قديم يعرفه.

خصام

أطفأ بقية السيكارة، ونفث الدخان، ثم قال، وهو يشير بالقلم إلى ورقة على المكتب أمامه:

– ننقل محمود من الديوان إلى المحاسبة.

فأضاف الوكيل، وهو غارق في مقعد عميق، أمام مكتب المدير، وما تزال بين أصابعه بقية سيكارته:

– وننقل حسين من الصادر والوارد إلى أمانة المستودع.

ثم أطفأ بقية السيكارة.

وبعد شيء من الصمت، حرك المدير القلم على الورقة أمامه، ثم قال:

– سأنقل منى من الآلة الكاتبة، إلى مكتبي، وأجعلها سكرتيرة ثانية لي.

أطرق الوكيل قليلاً، ثم سأل، وهو يبتسم:

– وأمل؟

فأجاب المدير على الفور:

– أمل لترتيب مواعيد المقابلات والزيارات والاجتماعات، ومنى لترتيب القرارات وتصنيفها، ومراجعة جداول الأعمال.

نهض الوكيل، وقدم سيكارة للمدير، ووضع أخرى بين شفتيه، ثم قال بهدوء، وهو يشعل سيكارة المدير:

– لا بأس، وأنا سأستغني عن قاسم، مدير مكتبي، انقله أنت إلى حيث تشاء، وأرجو أن توافق على نقل سناء إلى موضعه.

ولم يعلق المدير بشيء.

وأشعل الوكيل سيكارته، ثم رجع إلى المقعد العميق، أمام مكتب المدير.

ورن جرس الهاتف، فرفع المدير سماعة الهاتف الآخر:

– ألو.. نعم.. أهلاً.. أهلاً..

رمق الوكيل الذي كان يرقبه، ثم رد بصره عنه، موارياً اضطرابه، وتابع حديثه:

– نعم.. نعم.. كل شيء على ما يرام، نعم.. إنه شاب ذكي ونشيط جداً، وفي الواقع يفوق أصحاب الشهادات والاختصاص.. نعم.. كما تشاء.. نحن بالخدمة.

ورمق الوكيل ثانية، ثم اصطنع ابتسامة عريضة، ووضع السيكارة في المنفضة، ثم عاد إلى الحديث:

– نعم.. نعم.. سأعينه معاوناً ثانياً للوكيل، لا.. لا.. العمل عنده قليل، سيراجع البريد ويصنفه فقط، كما تأمر، نحن بالخدمة.. مع السلامة.

ووضع سماعة الهاتف، ثم تناول السيكارة من المنفضة، ملأ رئتيه، ثم قال للوكيل، وهو ينفث الدخان:

– أظنك عرفت كل شيء؟!

أطرق الوكيل، ولم يجب.

ومرت فترة صمت، كان كلاهما ينفثان فيها دخان السكائر، ثم امتدت يد المدير إلى شريط الهاتف الثاني، وسحبه من المأخذ، ورماه على الأرض، ثم رفع سماعة الهاتف الأول، وأخذ يصيح:

– ألو.. حميد، أنا في اجتماع خاص، مهم، ضروري، قل لهم أنا في جهنم، لا تصل الخط بأحد، أبداً.

وخبط سماعة الهاتف، ثم قال للوكيل:

– سننقل عامل المقسم.. أقصد سنجعل دوام هذا العامل في المساء، وسنجعل دوام العامل الثاني في الصباح.

وعلق الوكيل ببساطة:

– لا بأس.

وقرع الباب، ثم دخل الآذن، يحمل فنجاني قهوة، وفور دخوله قال الوكيل، وهو يشير بيده، وينفث دخان السيكارة، بهدوء بارد، كمن يتابع حديثاً متصلاً:

– لا، أنا لا أوافق أبداً .

صمت المدير، نظر إليه، أدرك غايته، فأظهر غضباً مفاجئاً، ثم صاح:

– كل شيء سينفذ بالدقة المطلوبة، في الموظفين كلهم، ومن غير استثناء.

ثم التفت إلى الآذن، وقال له، بلهجة مختلفة:

– أغلق الباب وراءك.

ولم يكد الآذن يبلغ الباب، حتى ناداه، فرجع إليه، فقال له:

– هات، ناولني الدواء من الدرج الأسفل.

وانحنى الآذن إلى الدرج الأسفل، في مكتب المدير، وأخرج زجاجة دواء صغيرة، فيها بضع حبات، ووضعها على مكتب المدير، ثم وقف ينتظر أمراً آخر، فازدرد المدير حبة واحدة، ثم التفت إلى الآذن، وقال له:

– اذهب، ولا ترجع حتى أطلبك.

ثم التفت إلى الوكيل، وقال له:

– إذا لم أضرب في اليوم أربع حبات أو خمساً، فلا يمكن لأمور المديرية أن تسير على ما يرام.

وما إن خرج الآذن، حتى انفجر كلاهما في ضحك مبالغ فيه، ثم قال المدير وهو يحمل فنجان القهوة، يقربه من فمه:

- **سيخرج ليؤكد للموظفين أننا في خصام كبير.**

فأضاف الوكيل، وهو ما يزال يضحك:

- **وسيقول لهم إن المدير غاضب جداً، وقد ابتلع أمامي حبة مهدئة.**

فعلّق المدير، وهو يقهقه:

- **بل سيجعلها ثلاث حبات.**

ثم أضاف وهو يرتشف القهوة:

- **ولذلك سأنقله إلى جناح الموظفين، وسأضع بدلاً منه أميناً.**

وأخذ الوكيل رشفة من فنجانه، ونفث دخان سيكارته، ثم قال بهدوء:

- **وسأنقل عبدالله إلى مكتبي.**

وضع المدير فنجان القهوة من يده، ونفث دخان سيكارته، ثم قال سائلاً بشيء من الانزعاج:

- **وماذا ستفعل بعمر؟!**

فأجاب الوكيل على الفور:

- **هذا لصنع القهوة، وذاك لتنظيف المكتب.**

أخذ المدير رشفة من فنجانه، ثم قال:

- **إذا كان لديّ آذنان، فلأن مكتبي أكبر، ولأن ضيوفي أكثر، ولكن.**

وصمت، رشف من فنجانه، وضع بقية سيكارته بين شفتيه، ثم قال بهدوء، مخفياً انزعاجه:

- **إذا أردت، فإني سأكلف أمين، حين أنقله إلى هنا، بإعداد القهوة لك أيضاً، فهو شاطر جداً، ومكتبك يبعد عن مكتبي، إلا قليلاً، ولا سيما بعد نقلك له من الدور الأسفل في العام الماضي.**

وضع الوكيل الفنجان من يده، ثم نهض، واقترب من المدير، وأشار ببقية السيكارة التي ما تزال بين أصابعه، ثم قال:

- **لا مانع لدي، ولكني سأنقل غرفة مكتبي إلى الغرفة المواجهة لمكتبك.**

نفث المدير الدخان، ثم أطفأ بقية السيكارة، وهمّ بقول شيء ما، ولكن صمت حين علا في الخارج صوت تخاصم وتشاتم وشجار.

أطفأ الوكيل بقية السيكارة، واندفع إلى الخارج، ثم رجع يسوق أمامه الآذن الذي كان قد أحضر القهوة، وآذناً آخر.

- **كنتما تتشاجران إذن؟! شيء رائع، ولا سيما داخل المديرية؟!**

لم يجيبا بشيء، فسألهما المدير بحدّة:

- **لماذا الخصام؟!**

ثم تنبّه فجأة إلى شيء ما في يد صالح، الآذن الأول، وقد أغلق عليه قبضته، فصاح به:

- **افتح يدك.**

وتردد صالح، ثم فتح يده، فإذا فيها بيدق من بيادق الشطرنج، فقال له المدير:

- **كنت تلعب معه إذن في الشطرنج، ثم تخاصمتما؟!**

وتناول سيكارة من العلبة الملقاة على المكتب أمامه، أشعلها بهدوء، نفث دخانها، ثم قال لهما:

- **سأحولك يا صالح إلى حارس ليلي، في المديرية، وأنت يا جميل سأنقلك إلى المستودع، وسأحسم راتب ثلاثة أيام، لكل منكما.**

وقبل أن يفوها بشيء، قال لهما الوكيل:

- **هيا اخرجا.**

ثم رجع إلى المقعد العميق، أمام مكتب المدير، وأشعل سيكارة، ومضى ينفث دخانها.

ومع خروج الآذنين، ظهرت في الباب سكرتيرة المدير، تحمل البريد، فدخلت وهي تنظر إليهما خارجين، فسألها المدير:

- **هل البريد كثير هذا اليوم؟**

فأجابت:

- **لا، ولكن فيه رسالة من الوزارة.**

ووضعت البريد على المكتب، ووقفت قليلاً، فقال لها المدير:

- **أنا ما أزال في اجتماع، لا تعطي موعداً لأحد.**

وخرجت السكرتيرة، والوكيل يرقبها من وراء، وهو ينفث دخان سيكارته.

وبعد خروجها، تناول المدير البريد بهدوء، وهو يواري لهفته إلى الاطلاع على رسالة الوزارة، فتح المغلف، استل الرسالة، وهو يرمق الوكيل باضطراب يحاول إخفاءه، حتى إذا أتم قراءتها نظر إلى الوكيل، نظرة هادئة، ثم قال:

- **تمّ تعيينك مديراً بدلاً مني.**

وملأت وجه الوكيل ابتسامة حاول اخفاءها، ولم يعلق بشيء، كابحاً جموحاً عاصفاً في داخله، ثم جاء كلام المدير، بعد صمت فأنقذه:

- **وأنا عينت رئيساً عاماً للمديريات.**

وأطفأ كل منهما سيكارته، ثم دخلا في عناق، ووجه الوكيل إلى مكتب المدير، على حين كان وجه المدير إلى الباب.

العصفورة والوزير

شمس تموز تنصب على الشارع، فيسيل نارها فوق الإسفلت الأسود، والسيارات تسبح في اللهيب المشتعل، تضج وتزمجر وتصيح، كمن يكاد يختنق، وربطة عنقك مشدودة، وذراعك إلى الحقيبة مشدودة، وقد أزف موعد لقائك بالوزير، وأنت تشدُّ خطاك إلى مبنى الوزارة، وقد ضاع في الغبار والدخان العطر الذي مسحت فيه ذقنك، ولا يمكن في الدقائق القليلة المتبقية أن تفكر في الكلمات التي ستقولها.

ولكن لا قيمة في هذا الحرّ القائظ لما تقوله، أو تفكر فيه، أو تنويه، القيمة لما تفعله فقط، التفكير والنية والقول مثل الجو المعتدل والنسيم اللطيف، والسحاب الرقيق، الذي سيأتي بعد شهر أو أكثر، ولكن الحر هو وحده الفاعل الآن، ولا قيمة لشيء آخر سواه، وكذلك الفعل.

افعل، لا ترهق نفسك، ولا تفكر، دع اللحظة الراهنة التي تأتي، وأنت في غرفة الوزير، هي التي تقرر.

ولكن لا تقدم الشكر في البدء، أظهر الاعتداد والثقة، وامنح بعض الوعود، ثم قدم الشكر أخيراً، اجعله ينتظر الشكر منك قليلاً، مثلما سيجعلك تنتظر، من غير شك، حتى تدخل عليه، على الرغم من الوعد المحدد، هكذا العادة دائماً، ولكن..

وتقفز أمامك على الرصيف عصفورة صغيرة، مفتوحة المنقار تلهث، تقفز، تحاول الطيران، وتسقط.

بالأمس منذ أسبوع، أو أسبوعين، تمنى عليك ابنك أن تشتري له عصفورة صغيرة، يحلم بعصفورة، ولا يعرف كيف يمكنه الحصول عليها، في دار ذات حجرات مغلقة، لا تطل على غير بنايات شاهقة، يحلم ابنك بعصفورة؟!

أفقت ذات مرة صباحاً، مبكراً، وتمنيت شيئاً تتسلى به، تملأ به يومك ولم تعرف ما هو، كنت دون السابعة، كانت أمنية غامضة، وإذا عصفورة صغيرة تسقط إلى جانبك، أمضيت معها يومك، فرحاً سعيداً، كنت تنام في فناء الدار، دار جدك القديمة، تحت شجرة توت كبيرة، طويلة الأغصان، كنت تستيقظ كل يوم، قبل شروق الشمس، على صوت العصافير، وهي تزقزق، وكثيراً ما سقطت من تلك الشجرة عصافير صغيرة، وهي تزقزق، وكثيراً ما سقطت من تلك الشجرة عصافير صغيرة، كانت تتدرب على الطيران، وأنّى لابنك اليوم عصفورة كعصفورة تلك الأيام.

ولكن هذه هي عصفورة أمامك.

رسمت مرة نافذة، كان في الخارج ثلج برد وعاصفة وأغصان مكسرة، وفي الدخل مدفأة وأطفال وأبوان وطعام وفاكهة، وطفلة تفتح النافذة، لتدخل عصفورة، على جناحيها ندف ثلج صغيرة.

صورة رسمتها، أو حلمت بها، أو رأيتها في كتاب، وأنت طفل.

ومرة، أو غير مرة، سقطت في فناء الدار يمامة ناعمة، بنية اللون، مطوقة الجيد، ضربت جناحها قطة، وكان جدك يداوي الجناح المهيض، وأنت تتملى عيني اليمامة، وتلمس عنقها، وتقدم لها فتات الخبز.

وهذه عصفورة تقفز أمامك، مفتوحة المنقار، تلهث، بنية اللون، صغيرة.

وفوق الإسفلت الملتهب، تمتد يدك، وتمتد، وتركض وراءها، وتحط يدك عليها، تمسك بها، وتمضي في القيظ المشتعل.

مبنى الوزارة ينهض بنوافذه الزجاجية، وهي تعكس نار الشمس الملتهبة، فتزيد القيظ اشتعالاً، ويدك مشدودة إلى الحقيبة، والأخرى تمسك بالعصفورة.

هل تدخل على الوزير والعصفورة في يدك؟!

هل تسلمها إلى الحارس الواقف على باب مبنى الوزارة؟! أم هل تسلمها إلى مدير مكتب الوزير؟! ليحتفظ أحدهما بها إلى حين انتهاء لقائك بالوزير؟!

هل تضعها في جيبك؟! أم هل تضعها في الحقيبة؟! وتمد يدك إلى جيبك لتقدم بطاقتك، فإذا في يدك العصفورة بدلاً من البطاقة، أو تفتح الحقيبة أمام السيد الوزير، فتطير العصفورة، وتحلق في فضاء غرفته، وتركض لتمسك بها، وتتعثر بالمناضد الصغيرة، وتنجذب العصفورة إلى مكيف الهواء، ويتناثر ريشها على المكتب الفخم، فوق الأوراق الرسمية، والسيد الوزير ينظر إليك.

العصفورة في يدك تلهث، تستسلم لقبضتك، العرق في يدك يبلل ريشها البني الناعم، عنقها رقيق صغير، رأسها دقيق لطيف، عيناها سوداوان تتألقان، سيقبلها ابنك، وسيمسح ريشها بأنامله، سيضع منقارها بين شفتيه، ستنقر لسانه.

وتمد قطة عنقها إليك، تمطه، وهي تموء، مرسلة لسانها الأحمر، مكشرة عن أنيابها، وتتحفز، واقفة على سور مبنى الوزارة، لقمة سائغة في يدك تقدمها إليها، طعاماً طازجاً، في هذه الظهيرة القاتلة، وقد فسدت الأطعمة كلها.

أو تقذف بها إلى حديقة الوزارة، لتقفز من غصن إلى غصن، لعلها تجد أبوين لها، يعلمانها الطيران، أو لعل أبويها يهتديان إليها، ولكن يبدو أن لا عصافير في حديقة الوزارة.

كان جدك يرقى السلم الخشبي المهترئ، وهو العجوز المتهدم، ليضع على غصن شجرة التوت الكبيرة، عصفوراً صغيراً، كان قد سقط إلى فناء الدار، وأنت ترى عصفورين آخرين يحلقان

فوق رأس جدك، ويحومان، ويزقزقان في حدة، وجدك يلوح لهما بالعصفور الصغير في يده، ليطمئنهما عليه.

ومرة رأيت في فناء الدار ريش عصفور صغير متناثراً، وبقع دم صغيرة.

وتمضي إلى مبنى الوزارة، ولكنك لم تقرر شيئاً، وليس في الوقت متّسع، والحارس على باب المبنى يحدق فيك.

– أنا على موعد مع السيد الوزير.

ويأتيك الجواب، في الحر القائظ، كدفقة هواء لافح:

– سيحضر بعد ربع ساعة.

ربع ساعة يمكنك أن تمضيها تحت الشمس، والنار تنصب على رأسك، والقيظ يسيل تحت قدميك، والعرق يبلل جناحي العصفورة، وأنت قابض عليها، وهي لاهثة، تفتح منقارها، والقطة على السور تتابعك، وهي تموء، والحارس يرسل بصره إليك.

أيد كثيرة حولك، على الرصيف، وفي الشارع، وفي مدخل مبنى الوزارة، أيد تضرب في القيظ اللاهب، بعضها مشدود إلى حقائب، وبعضها إلى مصنفات وأوراق.

هل من يد تأتمنها على العصفورة، أم هل من يد تحمل العصفورة إلى ابنك؟ أم هل من يد تمنحها العصفورة؟!

كنت مرة تلعب مع ابن الجيران، في فناء الدار، كان أكبر منك قليلاً، وسقط عصفور، وأسرع إليه ابن الجيران، حطت يده عليه، أمسك به بقسوة، وفي سرعة خاطفة فصل الرأس عن الجسد.

ويتقدم نحوك طفل، اكبر من ابنك قليلاً، يتهادى على الرصيف، يحمل صندوقاً مفتوحاً، يمكنك أن تهديه العصفورة، ليلعب بها، ويسقيها، ويطعمها، ويحقق بها حلماً، يتقدم منك، سيبادر من غير شك إلى طلب العصفورة، وستقدمها إليه.

– طوابع، دخان، أوراق رسمية.

ويضع تحت ناظريك صندوقه الصغير المفتوح، ويكرر العبارة، مائعة ممطوطة، وثمة في الصندوق طوابع وعلب تبغ وأوراق مختلفة الأشكال والحجوم، يتلكأ أمامك قليلاً، وهو يحدق فيك، وتتساقط على جبينك حبات العرق، ثم يمضي، متهادياً، في هدوء، وملل.

وتناديه، فيرجع إليك ملهوفاً، متوفزاً.

– هل تريد هذه العصفورة؟!

ينظر باشمئزاز، ثم يمضي، خائباً، وهو يوليك ظهره، بطيء الخطا.

مرة رأيت في ديوان شعر صورة لفتى يشق قميصه، ويكشف عن قفص في موضع القلب من صدره، وفي داخل القفص عصفور.

ليت قلبك كان قفصاً، تضع العصفورة فيه.

وتموء القطة، وتكاد تثب إليك.

وتفحص العصفورة بقدميها، وتدغدغ راحة كفك بأظافرها الناعمة، وتحاول الرفرفة، وقد بلل جناحيها العرق، وأصابعك تقبض عليها، ثم تنقر ظاهر يدك، وهي تلهث.

ويرسل إليك الحارس بصره، ويرجع إليك الولد بائع الطوابع، وهو يكرر عبارته المائعة الممطوطة، وفي وجهه قدر غير قليل من الاشمئزاز والضيق.

وتمضي بوجهك نحو حديقة مبنى الوزارة، تتمنى نسمة من خلال أغصان قصيرة عجفاء، لشجيرات بائسة صغيرة.

وتتوسط الشمس السماء، تسقط على الأرض.

ما يزال لديك متسع من الوقت، يمكن أن يتصبب فيه منك قدر أكبر من العرق، كما يمكنك أن تفكر فيه، أو تحلم، ولعل الوزير لا يحضر، فتمضي بالعصفورة إلى البيت، فتطعمها، وتسقيها، وتدربها على الطيران، ويلعب بها ابنك، ثم تطلقها في الفضاء الرحب.

ولكن يبدو أن الحر وحده هو الذي سيقرر أخيراً، فالعصفورة تكاد تنفق، بل نفقت، وهاهي ذي القطة تلعب فمها متلمظة، وقد وثقت بأنها ستحظى بوجبة جيدة، ولكنها قد حرمت متعة الصيد.

وباليد نفسها التي نفقت فيها العصفورة، ستمسح رأس ابنك حين ترجع إليه، وبها أيضاً ستحمله، وباليد نفسها ستصافح السيد الوزير، وهاهي ذي سيارته قد وصلت، فلتقذف بالعصفورة الميتة إلى القطة، ولتصافح بعد قليل الوزير، وفي غرفته ذات الهواء المكيف، لن تتساقط على جبينك حبات العرق.

وستخرج بعد قليل، وقد أسند إليك السيد الوزير المنصب الجديد، مديراً عاماً لمديريات المحافظات كلها، ولن تفسد عليك العصفورة متعة تسلمك منصبك الجديد، مثلما أفسد موتها على القطة متعة صيدها.

وإذا ما سألك ابنك عن العصفورة، فستقول له:

– **لا يمكن للعصفورة أن تعيش في دارنا المغلقة**، وستعلمه ألا يسألك بعد ذلك عن العصافير، ولكن لا يمكن أن تنسى أبداً العصافير في دار جدك القديمة، ولا هذه العصفورة التي ماتت في يدك، وأنت متشبث بها.

الإجهاض

ببرود تلقى النبأ، ومن غير أن يبدي انفعالاً ما، تناول من يدها المرتعشة فنجان القهوة، ثم أشعل سيكارته، وأخذ يرتشف قهوة الصباح، بهدوء وصمت، وأنظاره مرسلة نحو صفحات المجلة المبسوطة أمامه على المائدة. وقعدت تنتظر الجواب، ثم أخذت تجاريه في ارتشاف القهوة.

شمس الصباح دافئة، والزهرات متفتحة، وثمة عصفور يقطع الصمت، وصفحات المجلة لم تقلب بعد. نظر إلى ساعة يده، ونهض، وبصوت هادئ أخذ يتكلم:

– ندى، لا تؤخّريني، فقد حان موعد خروجي، وبالنسبة إلى النبأ لديّ ما هو أهم منه، سأبدأ في الأسبوع القادم بالعمل في مشروع جديد، بناء مجمع سكني، من أربعين وحدة سكنية، وأنا المدير العام.

رفعت وجهها إليه، مبتسمة وقالت:

– أهنئك، فأنت جدير بذلك، ولكن...

قاطعها بإشارة من يده، وهو يطفئ بقية سيكارته، ومن غير أن ينظر إليها، ثم قال:

– أنت نسيتِ تناول حبة، أو تعمدتِ ذلك، ولا بد من الإجهاض، اطلبي من المؤسسة إجازة مرضية، وسأتصل اليوم بالمستشفى.

نهضت والدموع في عينيها، وقالت بهدوء:

– أنا في الشهر الرابع.

– تشجّعي، سأكون إلى جانبك، ولا تنسي طموحنا.

ضغط على يديها بقوة، وهو ينظر إليها، ثم خرج.

*

وفور وصوله إلى مكتبه اتصل بالهاتف بصديقه الدكتور منير، وطلب منه حجز غرفة، وتحديد موعد لعملية إجهاض.

– ولكنها المرة الثانية، يا أستاذ عمر؟!

– أعرف ذلك.

– ولكن لا تنس أنه مضى على زواجك خمس سنوات؟!

– وليمض عشر.

– والأولاد؟! ألَمْ تفكر فيهم؟!

– سأفكر فيهم بعد أن أوفر لهم إمكانات المستقبل.

– ولكن .. لا نهاية لهذا؟!

– سنتحدث في هذه الأمور فيما بعد، ولكن لا تنس تحديد الموعد، وحجز غرفة.

وضع سماعة الهاتف، وأشعل سيكارة، ونظر إلى ساعة يده.

بقي للاجتماع ربع ساعة، لا بُدَّ من مراجعة الأوراق، ولكن كل شيء معدّ، هكذا اعتدت دائماً، الحزم هو الحل، تجاه نفسك أولاً، وتجاه الآخرين ثانياً، من غير استثناء، الانفعال لا بُدَّ منه، ولكن من الممكن ضبطه، بل قمعه، مطمحك نبيل، لا تتراجع، فالأولاد ضرورة، ولكن لا بُدَّ من تأخيرهم حتى تتاح لهم ظروف جيدة، تذكر المستخدم محموداً، طلب منك مرة الدخول عليك، حسبت أن لديه مشكلة، ولكنه جاء ليقدم لك قطعة حلوى، مثلما قدم لجميع العاملين في المؤسسة، بمناسبة المولود التاسع، غضبت يومئذ، وذكرت أن ليس عندك ولد، ولكن لو انسقت مثله وراء إنجاب الأولاد، لكان لك اليوم خمسة، أو ثلاثة على الأقل، السكرتيرة عندها ولدان، ومساعدك عنده أربعة، رئيس الديوان عنده خمسة، وأنت؟! لقد قاومت خمس سنوات، وصبرت، حتى وصلت إلى هذا المنصب، هل وصل إلى مثله أحد من زملائك؟! وزوجتك مقتنعة برأيك، عاندت في البدء، ورفضت، ولكنها قبلت، ولا سيما حين وفرت لها وظيفة جيدة في مديرية الاستيراد العامة، امتصت الوظيفة كثيراً من وقتها واهتمامها، وأصبح في البيت كل شيء متوفراً، غسالة وبراد وجلاية ومكيف هواء، وأخيراً جاءت السيارة، هل كان الممكن تأمين ذلك لو جاء الأولاد في السنة الأولى أو الثانية من الزواج؟! حين فاجأتها في المرة السابقة بجلاية الصحون، اقتنعت بضرورة تأخير الإنجاب، وقبلت بالإجهاض، وأقرّت بحاجة الإنسان في العصر الحديث إلى وسائل الحضارة، هذه المرة سوف تفجؤها بجهاز فيديو، بقيت للاجتماع بضع دقائق، يمكنك التأخر قليلاً، لتتصل بالهاتف، وتطلب جهاز فيديو.

*

فرحتْ بجهاز الفيديو، وقعدتْ تتابع عرض الأشرطة الثلاثة المرسلة مع الجهاز، وفي أثناء العرض سلّمتْ برأيه في الإجهاض.

عمر على صواب، يمكنكِ تأخير الإنجاب سنة أخرى، أو سنتين، حتى يتم دفع ما بقي من أقساط السيارة، ويمكنكِ بعدئذٍ ترك الوظيفة، والتفرغ للولد، ويكون كل شيء في البيت قد توفر، ويكفيكما ولد، أو ولدان، وقد تهيأت لهما إمكانات المستقبل الزاهر، وأنت لن تقبلي لهما بأقل مما كان لك في بيت والدك، إذن، لا بُدَّ من الانتظار والتريث، أنت الوحيدة في المؤسسة التي لا تشكو من إرهاق البيت والحمل والأولاد، ولم تتأخري مرة عن الوظيفة، أما باقي الموظفات ففي شكوى دائمة، وتأخر مستمر، بل أنت الوحيدة التي استطاعت أن توفر لبيتها وسائل الحضارة.

ونهضت لتضع شريطاً جديداً في جهاز العرض، وإذا شيء في أحشائها يتحرك، فالتفتت إلى زوجها، وصاحت بفرح:

– عمر، المس هنا، إنه يتحرك.

وتلقاها عمر بصمت، فأطرقت، ثم مضت صامتة، أحسّت بضيق شديد، سألته:

– ما رأيك في كأس من الشراب المبرّد.

أشار بالإيجاب، فنهضت، وقبل أن تمضي إلى المطبخ قالت:

– رأيت اليوم إعلاناً في الصحف عن براد جديد، يعطي قطعاً من الثلج ذات أشكال وحجوم مختلفة، ويقدم الماء المبرد من صنبور خاص.

– سأشتريه بعد خروجك من المستشفى.

لم تقل شيئاً، ومضت إلى المطبخ.

*

انقطع العرض، وسادت العتمة، وسمع صوت وقوع على الأرض، أسرع إلى المطبخ أشعل عود ثقاب، وإذا ندى ملقاة على الأرض.

*

خارج غرفة الإنعاش وقف ينتظر، وهو لا يدري ما يفعل، اتصل بصديقه الدكتور منير، ورجاه الحضور على الفور، عانى صعوبة كبيرة في ضبط ضيقه وتوتره، لا لشيء، إلا لأنه لم يتوقع ما حدث، ولا يجد ما يفعل.

رآه رجل في البهو، لاحظ اضطرابه، فقدم له سيكارة، وسأله عن الحالة، فأخبره أن زوجته صعقها التيار، نتيجة تماس حدث بسبب خلل في البراد، على ما يبدو.

وحين خرج الطبيب من غرفة الإنعاش أسرع إليه يسأله، وكان الجواب:

– اطمئن، هي بخير، ولكن الجنين مات.

وطلب منه السماح له بالدخول لرؤيتها، فاعتذر، وأكد ضرورة الانتظار، ثم دعاه إلى غرفته، وقدم له فنجان قهوة، فأشعل سيكارة، وأخذ ينتظر.

لا، ندى لن تموت، ستخرج من غرفة الإنعاش، شاحبة، ستقول لها: "**تشجّعي**"، وستضغط على يدها، وتؤكد أن الجنين في المرة القادمة لن يموت، وسوف تبتسم لك، وتقول: "**أتمنى ذلك**". فهذه هي رغبتها، بل هذه هي رغبتك.

ولما حضر الدكتور منير، وعلم بالأمر، التفت إلى عمر، وقال له:

– لم أكن مقتنعاً بالإجهاض، ولكنه أصبح مفروضاً الآن علينا.

ثم اقترح إجراء العملية فوراً، ولكن الطبيب أكد ضرورة التريث ساعتين على الأقل، حتى تسترد ندى قواها، وقبل أن يرد عليه الدكتور منير، رن جرس الهاتف، فرفع الطبيب السماعة، وقبل أن يضعها، نهض شاحباً، وهو يقول: "**علينا أن نسرع**".

واتجه الثلاثة إلى غرفة الإنعاش، ولما بلغوها رأوا الممرضة تخرج منها كاسفة. فأسرع إليها عمر يسألها، لم تجب بشيء، وتوجهت إلى الطبيب لتقول له:

– ماتت .

يوم .. لرجل واحد

- ١ -

خرج تتقدمه بطنه المكورة، وهو يحمل ملف الأوراق، فتلقاه شريكه أبو عمر، سائلاً:

- وضع توقيعه المبجل؟!

- بثلاثة آلاف.

واتجها نحو المصعد، وتوفيق يقول:

- لا تهتم، سنعوضها.

انتظرا وصول المصعد، قليلاً، ثم تركاه، ومضيا إلى الدرج، وأخذا يهبطان عليه، مهرولين، وفي البهو التقى بهما حامد، فسأل:

- انتهت الأوراق؟!

فأجابه أبو عمر ممتعضاً :

- كانت العادة أن تنهيها أنت كلها؟!

فردّ عليه بثبات:

- هكذا الأوامر الجديدة، لا بُدَّ من دخول صاحب العلاقة بنفسه.

علّق توفيق، وهو يحمل ملف الأوراق، ويمسح على بطنه المكورة:

- من أجل البطون.

فرد حامد:

- الحياة كلها من أجل البطن، وإلا فلماذا نعمل؟!

وغرق الجميع في ضحكة مصطنعة، ثم مد توفيق يده إلى جيبه، فأخرج رزمة أوراق نقدية، استل منها ورقتين، ناولهما إلى حامد، وهو يقول:

- خذ املأ بطنك.

فتناولهما حامد، وهو يصطنع الضحك، قائلاً:

- لا تخف، لن تمتلئ. ولكني في المرة القادمة لن أقبل بأقل من ألف وخمسمئة.

فأجابه توفيق وهو ماض مع أبي عمر نحو الباب الخارجي:

- وإذا وقعتها من المدير، فخذ ألفين، بل ثلاثة.

وخارج المبنى سفعتهما ريح شتوية قارسة، فَرَدَ أبو عمر معطفه، ونظر إلى ساعة يده، ثم قال:

- سأمر بمدير البنك.

- وأنا سأمر بالمشروع، ثم أراك في المكتب، فلا تتأخر.

ومضى كل منهما في اتجاه، والريح تعصف، جافة، مثيرة الغبار، ودخل توفيق سيارته، ورمى بالملف على المقعد، أشعل سيكارة، وانطلق.

– ٢ –

حين بلغ مشروع البناء الذي لم يكتمل، كانت السماء قد اكفهرت، وتلبدت فيها غيوم داكنة، تنذر بمطر غزير، ولكن الريح كانت ما تزال تعصف، جافة، مثيرة الغبار.

أخذ يتخطى أكوام الإسمنت والتراب والحجارة، وقطع الخشب المبعثرة هنا وهناك، حتى إذا صار داخل البناء، نادى الحارس.

ودخل داراً، ما هي إلا جدران إسمنتية قائمة، من غير نوافذ ولا طلاء، ولا بلاط، ولا أبواب، رأى الحارس العجوز مع شاب في الثلاثين، وشابة دون ذلك، رمقهما بنظرة، وقدّر أنهما خطيبان، ثم التفت إلى الحارس وسأله، غير مبال بالشاب والصبية:

– أين العمال؟!

– سمير ذهب لإحضار النوافذ والأبواب، وأخذ معه الأولاد، والمبلّط ينتظر البلاط الملون، وأنا كما ترى.

زفر توفيق، ودفع بقدمه حجراً صغيراً، ثم رمق الشاب والصبية بنظرة سريعة، والتفت إلى الحارس، يقول له:

– انزل غط أكياس الإسمنت، ولا تتعب الجماعة في رؤية الدور من هذه الجهة، فكلها بيعت.

ونزل الحارس، فالتفت الشاب إلى توفيق يسأله:

– بكم بيعت؟!

– بأسعار مختلفة، أقل دار بسبعين.

وعندئذ قالت الشابّة:

– ولكن الحارس أخبرنا أنها بخمسة وستين؟

فعلق توفيق ضاحكاً:

– أبو عبدو لا يعرف شيئاً.

أحس الشاب بالضيق، فأمسك يد خطيبته، وقادها أمامه، ومرّا بتوفيق، ثم خرجا، من الدار، من غير أن يقولا شيئاً، وأخذا يهبطان على الدرج.

وبعد قليل، نادى توفيق الشاب، فوقف هو وخطيبته، وأخذ توفيق ينزل إليهما على مهل، وهو يقول:

– أرى أنك شاب طيب، وأظن أنها خطيبتك؟!

وأشار إلى الشابة، وهو يصطنع الضحك، ولا يتردد في ملء عينيه منها، فأجابه الشاب بشيء من الجد:

- نعم.

وبعد قليل من الصمت، قال توفيق للشاب، وهو ويشعل سيكارة:

- هنا، في الطابق الأول، دار، هي ما تطلب، مناسبة جداً، من ثلاث غرف، ولكني، بصراحة، لا أعرف كيف أقول، أريد الدار لك، ولا أريدها.

- لم أفهم، ما قصدك؟!

- دار ممتازة، غرف واسعة، وإطلالة على الجهة الغبية، ولكن الدار مبيعة لرجل يريد بيعها ثانية، وسيربح بها، من غير شك، ولهذا لا أريدها لك.

وبادرت الشابة بالسؤال:

- وكم يطلب ثمناً لها؟!

- هو، في الواقع، يطلب خمسة وسبعين، وداره، في الحقيقة، تستحق ذلك.

تردد الشاب قليلاً، ثم قال:

- كنا نفكر في حدود خمسة وستين.

ضحك توفيق، ثم علق:

- لا، لا تفكرا في مثل هذه الأسعار، فهي قديمة، لم يبق شيء من ذلك.

أبدى الشاب امتعاضاً، ونظر إلى خطيبته، وهو يريد المضي، فأضاف توفيق سائلاً الشاب:

- ماذا يعمل الأخ؟ يبدو أنك موظف؟!

- نعم، مدرّس.

نفث دخان سيكارته، واصطنع ضحكة مرحة، ثم سأله، وهو يشير إلى الشابة، من غير أن ينظر إليها:

- وأظن أن خطيبتك معلمة أيضاً؟!

- نعم.

وبعد شيء من الصمت، أضاف توفيق:

- سأحاول إقناع صاحب الدار بسبعين ألفاً، لأجلكم، وإن كنت لا أتوقع أن يقبل، وعلى كل حال، يمكن أن تمروا مساءً، الساعة السادسة، بمكتب الأمانة العقاري، فسوف ترون صاحب الدار هناك.

وخارج البناء سفعتهم جميعاً الريح التي كانت ما تزال تعصف، وترددت في السماء زمجرات رعد، ينذر بمطر وشيك.

ونادى توفيق الحارس، وحين قدم إليه كان الشاب وخطيبته قد ابتعدا، فنظر إليه طويلاً، ورمى بقية سيكارته، ثم قال:

- من الآن فصاعداً الغرف الثلاث بسبعين، والأربع بتسعين.

تردد الحارس العجوز قليلاً، ثم قال:

- ولكني أخبرت أحد المشترين أنها بخمسة وستين.

- لا تكلم أحداً بعد الآن في الأسعار.

وانطلق بسيارته، مثيراً الغبار، والرعد يزمجر.

- ٣ -

لم يبتعد قليلاً عن البناء، حتى رأى أبا عمر، يداه في جيبي معطفه، والريح تثير الشعرات القليلة في رأسه، وهو يسير بخطاً عجلى، ضحك لمرآه، فأوقف السيارة وصاح به، ودخل أبو عمر، وقعد إلى جانبه وهو يقول:

- كان وعدنا أن نلتقي في المكتب، ولكني فضلت أن أراك هنا.

- وهل الأمر مهم؟

- لا، بسيط للغاية.

وانعطف بالسيارة في شارع فرعي، فقال له أبو عمر برجاء:

- لا تسرع، حتى لا نصل إلى المكتب قبل إنهاء الموضوع.

- تعرف أني لا أستطيع أن أقود إلا بسرعة.

تنحنح أبو عمر قليلاً، ثم قال:

- دار رخيصة، وجيدة.

- ولكن لها مشكلة.

- صحيح، مثل دار قاسم، التي اشتريناها الأسبوع الماضي، وقبل أن تسألني أقول: مؤجرة، ولا يستطيع صاحبها إخلاءها، وهو لذلك يريد بيعها.

فسأل، وهو ينعطف، وقد استهوته السرعة:

- والمستأجر؟

- درويش، ما له أحد، كل يوم يجرب عملاً، وعاطل على الأغلب.

وانعطف، فصرخ أبو عمر:

- الولد راح.

وانعطف توفيق بسيارته ثانية، في شارع فرعي آخر، ومضى محافظاً على سرعته نفسها:

- انتظر حتى نرى.

لم يجب بشيء.

– أما رأيته وهو يركض قادماً من الشارع الفرعي؟!

أشعل سيجارته بيد، والأخرى تمسك بالمقود:

– لنرجع لإسعافه.

– لا فائدة من رجوعنا، فالولد مات حتماً.

وخيم الصمت، والسيارة تنطلق مسرعة.

ارتسمت على زجاج السيارة قطرات من رذاذ المطر، لم تلبث أن تكاثفت، فأخذت المسّاحات تتحرك بقوة وحدّة.

– ٤ –

حين بلغا المكتب كان المطر قد أخذ ينهمر غزيراً، فنزلا من السيارة، واتجها نحو المكتب مهرولين.

نفض أبو عمر معطفه، وعلقه على المشجب، ثم قعد في الطرف المقابل لتوفيق، تحت لوحة كبيرة، تحمل، بالخط الكوفي، كلمتي: "**الملك لله**".

وقدم لهما صالح القهوة المرة، وطلب توفيق رشفة أخرى، وبعد شيء من الصمت، تدخل صالح سائلاً أبا عمر:

– لست على ما يرام؟!

ضحك توفيق، وأجاب بدلاً منه:

– تخاصم مع زوجته.

فعلق صالح ضاحكاً:

– لا، مثل أبي عمر لا يتخاصم مع زوجته أبداً.

ضحك توفيق، وأجاب ثانية بدلاً من أبي عمر:

– هي خاصمته.

عندئذ تنحنح أبو عمر، وأجاب مصطنعاً الضحك:

– ولماذا تخاصمني؟! كل ما تطلب حاضر عندها، تسألني ألفاً فأعطيها ألفين، أمس عشاؤنا أكثر من كيلو ونصف الكيلو لحماً؟!

ضحك توفيق، وعلق مؤكداً بتهكم:

– حقيقة، كان عشاؤك لحماً، ولكن نمت في الفراش من غير عشاء.

– والله كان لي عشاء وسحور وفطور.

وعلى الفور أجابه توفيق:

– كلام.

فقال أبو عمر، وصالح يقدم له القهوة المرة:

- **كلام متزوج وعنده أربعة أولاد، أفضل من كلام عزب، وفي الخمسين من عمره.**

فقال توفيق، وهو يشعل سيجارة:

- **أنا عصفور طيار، من غصن إلى غصن، ومن شجرة إلى شجرة.**

وفتح الباب، ودخل رجل قصير، في صدرية بيضاء، واتجه نحو توفيق، وهو يصرخ:

- **توفيق بك، لا تظن أنك هربت، كان يجب أن ترجع لحمل الولد إلى المستشفى.**

بهت صالح، وامتقع لون أبي عمر، أما توفيق فلم يجب بشيء، فتابع الكهل صراخه:

- **أنا، أنا أحمد الحلاق، رأيتك في المرآة، صدمت الولد وهربت، تفضل إلى مخفر الشرطة.**

نهض توفيق، فأطفأ بقية سيجارته، ثم أجابه بهدوء:

- **هذا ليس عملك، إذا أردت فاذهب إلى المخفر، وقل لهم ذلك.**

انفجر غضب الكهل، وصرخ:

- **تسخر مني؟! إذن سترى.**

وكوّر قبضته في وجه توفيق، ثم نظر إلى صالح، ثم إلى أبي عمر، ومضى نحو الباب، وقبل أن يخرج صاح:

- **سترى يا توفيق بك.**

رجع توفيق إلى مقعده، أشعل سيجارة، وطلب من صالح رشفة من القهوة المرة، وسرح ببصره إلى خارج المكتب، حيث كان المطر ينهمر غزيراً.

- ٥ -

بعد قليل، وقفت أمام باب المكتب سيارة شرطة، ونزل منها شرطيان، وأخذا ينظران إلى سيارة توفيق الواقفة أمام المكتب، ونزل الكهل، ثم قادهما إلى باب المكتب.

نهض أبو عمر، فقال له توفيق:

- **أنت لا تتكلم بشيء، وابق صامتاً.**

ثم التفت إلى صالح، وقال له:

- **أنت كنت تقود السيارة، وأنا كنت بجانبك.**

بهت صالح، وحاول النطق، ولكن توفيق عاجله قائلاً:

- **لا تخف، سأرتب كل شيء.**

ودخل الشرطيان، ثم دخل وراءهما الكهل، وهو محتد، واقترب من توفيق، وهو يشير إليه بغضب:

- **هذا، هذا هو، توفيق بك، تاجر البناء، صدم الولد بسيارته، ثم هرب، هذا هو.**

ورحب صالح بالشرطيين، ودعاهما إلى القعود، فلم يستجيبا، وتوجها إلى توفيق، يطلبان منه أن يرافقهما إلى المخفر، فسألهما بهدوء وثبات:

– **ماذا في الأمر؟!**

فأجاب أحدهما:

– **صدمت الولد بسيارتك، ثم هربت.**

ضحك توفيق قائلاً، وأشعل سيجارته، ثم قال:

– **أولاً، أنا لم أهرب، فها أنذا أمامكم، وثانياً، أنا لم أصدم الولد، وإنما سيارتي هي التي صدمته، وصالح كان يقودها، وأنا إلى جانبه.**

صعق الحلاق، وصاح منفجراً :

– **كذاب، كذاب، هو، هو كان يقودها.**

وهجم على توفيق، كأنه يريد ضربه، فأبعده الشرطيان، وطلبا منه التزام الهدوء، ثم توجه أحدهما إلى توفيق، وقال له:

– **تفضل معنا إلى المخفر، إذا سمحت، لتقول هذا هناك.**

فضحك توفيق، وهو ينفث دخان سيجارته، ثم نهض، وهو يقول لهما:

– **كما تأمران، أنا وصالح بالخدمة.**

وتقدم خارجاً، ثم لحق به صالح، والشرطيان، وتبعهم أحمد الحلاق، وقد عقدت الدهشة لسانه.

وظل أبو عمر في المكتب وحده، على حين كان المطر ما يزال ينهمر غزيراً، وقد جرى السيل على طرفي الشارع، وكاد يطغى على الرصيف.

– ٦ –

بعد أقل من نصف ساعة، رجع توفيق من مخفر الشرطة.

كان أبو عمر ما يزال في انتظاره، يشرب القهوة المرّة، وينظر إلى الشارع من وراء الزجاج، وقد خف انهمار المطر، وأخذ ينهل رذاذاً.

– **ماذا جرى؟!**

أشعل سيجارة، ونفث الدخان، ثم قال:

– **تمّ توقيف صالح، وأحمد الحلاق.**

فسأل أبو عمر مدهوشاً:

– **أحمد الحلاق؟!**

– **نعم، لحق بنا إلى المخفر، وهناك تهجّم علي، وقال: "لو كانت الموسى بيده(بيدي)، لضرب بها عنقي"، فأصدر أبو نجيب أمراً بتوقيفه، احتياطاً.**

– ومن أبو نجيب؟!

– هل نسيت؟ أبو نجيب، صاحبنا، هو نفسه مدير المخفر.

أحس أبو عمر بشيء من الضيق، صب لتوفيق فنجان قهوة، وصب لنفسه فنجاناً آخر، وبعد قليل من الصمت، سأل:

– والولد ؟!

– العمر لك.

– أعرف ذلك، أقصد هل عرفت عنه شيئاً؟!

– عمره سبع سنوات، وراءه جيش من الإخوة والأخوات، عشرة أولاد، ربما كان هو أوسطهم،، أبوه بائع متجول، وبيته في الطرف الشرقي، أم الولد جاءت إلى زيارة أخيها في الحي المجاور، ونزل الولد ليلعب مع أولاد خاله، وكان القضاء والقدر.

– وماذا ستفعل؟!

– سأذهب إلى المطعم، لتناول الغداء.

– أقصد ماذا ستفعل بالنسبة إلى الحادث؟!

– سأذهب مساءً إلى أهل الولد لتعزيتهم.

التفت إليه أبو عمر مدهوشاً، وسأل:

– تذهب بنفسك؟!

– نعم، وستذهب أنت معي أيضاً.

– أنا؟ أنا، لا بأس، أنا سأذهب، ولكن كيف ستواجه أنت أهل الولد؟!

ضحك توفيق، وهو يطفئ بقية سيكارته، ثم أجاب:

– لا تخف، والده طيب، ودرويش، وسيكون أبو نجيب هناك، والشيخ سلام، على كل حال، سوف ترى الأمور بنفسك.

ونهض، وتناول معطفه، وارتداه، ثم قال:

– إذا أردت أوصلتك إلى البيت.

وخرج توفيق، وتبعه أبو عمر، ثم أقفل باب المكتب، ودخل كلاهما في السيارة، ولم تلبث أن انطلقت بهما، وكانت أرض الشارع ما تزال مبتلة، على الرغم من انقطاع المطر.

– ٧ –

نزل أبو عمر أمام بيته، وقد ألح عليه توفيق أن يشاركه طعام الغداء، فأبى، فانطلق وحده في سيارته، حتى صار أمام المطعم.

حياه النادل عثمان، بانحناءة كبيرة، ثم قاده إلى ركنه المألوف، وقبل أن يشعل له سيجارته، قال له:

- عجّلْ لي الطعام، ولا تسألني ماذا أريد، فأنا اليوم أعتمد على ذوقك.

ولما رجع إليه، همس له:

- أريد صنفاً نظيفاً، لفترة القيلولة.

- ولكن، من الصعب تأمين مثل ذلك، في غير المساء.

- لا شيء يصعب على عثمان.

- أمرك.

ثم انحنى، ومضى، وأخذ توفيق ينقل الشوكة بين الصحون، ويسكب في جوفه جرعات من النبيذ اللاذع، وحين رجع إليه النادل، كان جسمه قد نضح حرارة هوجاء، غمز له بعينه، فمال عليه وهمس:

- بعد ربع ساعة، أمام بائع الحلويات، في شارع المحطة.

- والعلامة؟!

- حقيبة يد زرقاء.

فقال له:

- هات القهوة.

ورشف فنجان القهوة، ووضع في الصحن الحساب، وضاعف لعثمان العطاء، فودعه حتى باب المطعم.

وانطلق بسيارته، وقد أسند مرفقه إلى النافذة، وهو يستقبل النسمات الباردة، المشبعة برطوبة المطر الذي يبلل الشارع.

- ٨ -

وأمام بائع الحلوى، في شارع المحطة، رآها تحمل حقيبة يد زرقاء، وقف، فانتبهت إليه، وتقدمت نحوه.

وجه مليح، وعينان سوداوان، وفم مكتنز، ومعطف سميك، يخبئ جسماً مليئاً.

- تفضلي.

فسألت، بارتياب:

- ومن دلّك؟!

- عثمان.

فدخلت، مطمئنة، فانطلق بها، وهو يرنو إليها في المرآة، وقد ملأ جو السيارة عطرها الفاغم.

- وأنتِ من دلّك على عثمان؟!

- الفقر.

فسأل بلهجة مختلفة:

- وهل نسيت الحسن والجمال؟!

فاصطنعت ابتسامة، ثم قالت:

- وكل ما تشتهي.

فانعطف في شارع فرعي، وقرر أن يدور دورتين، قبل أن يصل إلى البيت، ثم قال:

- جرأتك تعجبني.

فمالت عليه، وقالت:

- إذن ادفع قبل أن تصل إلى البيت.

أحس بأنفاسها اللاهبة، فالتفت إليها:

- سأدفع لك في البيت مرتين.

فهمست بغنج:

- هنا الثمن، وهناك الكرم.

أوقف السيارة، فجأة، ونظر إليها، ثم قال:

- الساعة الآن الثالثة، ابقي معي حتى الخامسة والنصف.

شهقت، ثم قالت مازحة:

- وهل ستأكلني؟!

- لا، ولكن لدي موعد في السادسة، ولا أريد أن أبقى وحدي.

ترددت، ثم قالت، مساومة:

- وقت طويل.

- سأدفع أكثر مما تطلبين.

فقالت بدلع:

- أخشى السأم؟!

- إذن، فلترجعي إلى حيث رأيتك.

وانعطف يوهمها أنه سيرجعها إلى حيث رآها، ولكنها مالت عليه، وصرخت لاهثة، برجاء:

- لا، لا ترجع، سأبقى.

وانطلق نحو البيت، حتى إذا بلغه، أوقف السيارة، والتفت إليها، ثم قال:

- اتبعيني على مهل، وأبقي مسافة معقولة بيني وبينك، حتى لا يشك فينا أحد.

- ٩ -

أمام بائع الحلوى، حيث التقطها، وقف، بسيارته، وسألها:

- نسيت أن أسألك، ما اسمك؟!

- **لا يهم.**

- **وإذا أردت أن أطلبك مرة ثانية؟!**

- **عثمان يعرفني.**

- **أعرف ذلك، ولكن ماذا أقول له؟!**

ترددت ثم قالت:

- **قل له: دلال.**

ونزلت، فانطلق على الفور إلى بيت أبي عمر، وقف أمامه، وأطلق بوق السيارة، ونظر إلى ساعته، كانت السادسة، وبضع ثوان.

وبعد قليل ظهر أبو عمر، في مدخل البناء، تقدم نحو السيارة، ثم دخل فيها، متجهماً، وأغلق الباب وراءه، وهو يقول:

- **بصراحة، ضميري يعذبني.**

- **إذا أردت فانزل، ولا تذهب معي.**

- **لا، انطلق ولا تخف.**

وانطلق بسيارته، ونورها يفرش أرض الشارع المبتلة، وبعد هنيهة صمت، قال:

- **بصراحة، كان ضميري يعذبني حين كنا نشتري داراً لكي نخلي المستأجر، ولكن، هذه المرة، الأمر يختلف كثيراً.**

- **هذه مثل تلك**

- **لا، أنت لا تعرف، ماذا أقول لك، حين رجعت إلى البيت، ورأيت ابني منيراً، وأحمد، وبنتي سمر، وسماح، لو ترى، يا توفيق، حملت سماح، الصغرى، وقبلتها كثيراً، وخبأت وجهي في عنقها، وكدت أبكي.**

أوقف توفيق السيارة، ثم التفت إلى أبي عمر، وقال سائلاً:

- **هل تريد الرجوع إلى البيت؟!**

- **لا.**

- **إذن، انس ما مضى.**

ومرة أخرى، ساد الصمت، وكانت السيارة قد أخذت تدخل في أزقة ضيقة، موحلة، ملتوية، هدّأ توفيق السرعة، ثم قال:

- **أظن أن البيت هذا هو.**

ونزلا من السيارة، فتوجه توفيق إلى الباب فقرعه، وقبل أن يفتح سأله أبو عمر:

- **ما رأيك؟ هل أعطيه أنا خمسة آلاف؟!**

نظر إليه طويلاً، ثم سأل بسخرية:

- لكي تريح ضميرك؟!

- ١٠ -

فتح الباب، فظهر لهما الشيخ سلام، فبادر إلى الترحيب بهما، ثم قادهما إلى الداخل، وفي فناء الدار وقف، ليقول:

- كل شيء تم ترتيبه، ولكن الرجل جدير بالمساعدة.

فسأله توفيق:

- كم يريد؟

فأجابه:

- هو لا يريد شيئاً، وقد يرفض المساعدة ولكن أنت لا تبخل عليه، فالرجل طيب، ودرويش، واحتسب الأمر قضاء وقدراً، ولكن ابنه الأكبر...

سأل أبو عمر بضيق، مقاطعاً:

- ماذا سيفعل؟!

فأجاب الشيخ سلام بهدوء:

- ابنه، ولد في الثانوية، مندفع قليلاً، لن يفعل شيئاً، ولكنه قد يقول كلاماً.

وخرج إليهم أبو نجيب، فرحب بتوفيق وبأبي عمر، ثم قال:

- من الأفضل ألا تتأخر، هل اتفقتم على شيء!

فأجاب توفيق:

- سأعطيه عشرين ألفاً.

وأضاف أبو عمر:

- وأنا سأعطيه خمسة.

فقال أبو نجيب:

- لا بأس، ولكن علينا أن نسرع في كل شيء.

وأضاف الشيخ سلام:

- الواقع أبوه رجل طيب وفقير، وكذلك أعمامه، وأنا ذكّرتهم بالله، وبالقضاء والقدر، وأقنعتهم.

فقاطعه توفيق:

- نعرف ذلك.

ودخل الجميع، يتقدمهم أبو نجيب، وفي المؤخرة الشيخ سلاّم.

- ١١ -

وبعد قليل خرج أبو نجيب، وتوفيق، وأبو عمر، والشيخ سلام، ولا أحد يودعهم، غير رجلين من رجال الحي، الذين حضروا المأتم.

ودخل الرجال الأربعة في السيارة، واجمين، ولم تلبث أن انطلقت بهم.

كان الجو داخل السيارة دافئاً، يَرِينُ عليه الصمت والضيق، ولكن لم يلبث الشيخ سلام أن قطعه، قائلاً لتوفيق:

- أريد أن توصلني إلى البيت، قبل الجميع.

- سأوصلك إلى المقبرة، لا إلى البيت.

وجد أبو عمر الفرصة مناسبة، فقال:

- لو تمت المصالحة هذه الليلة، لنام كل واحد منا هانئاً.

فرد عليه أبو نجيب:

- نم هانئاً، ولا تقلق، غداً في مكتبي تسير الأمور على ما يرام.

- بصراحة لست متفائلاً.

فرد عليه توفيق:

- ماذا تتوقع منه؟! رفع دعوى؟! هو الخاسر، كان الحادث قضاء وقدراً، ولكني على يقين من أنه سيقبض غداً عشرين ألفاً، ويصمت.

- لو كان سيقبض حقيقة لكان قبض الليلة، وانتهى الأمر.

ووقفت السيارة أمام بيت الشيخ سلام، فقال:

- ها قد وصلت سالماً، بقي أن أقول غانماً.

فقال له أبو نجيب:

- ستغنم غداً، لا تخف، توفيق بك لن ينسى أتعابك، وأنت لا تنس الموعد غداً.

- أنا بالخدمة.

ونزل وانطلقت السيارة، وساد شيء من الصمت الفاتر، فقطعه توفيق قائلاً لأبي عمر:

- ما رأيك في مشاركتنا السهرة هذه الليلة؟

- لا، سأسهر مع زوجتي والأولاد.

فرد عليه توفيق:

- هذه من محاسن الزواج التي تمنعني من الإقدام عليه.

ووقفت السيارة أمام بيت أبي عمر، فنزل منها، وأبو نجيب يقول له:

- لا تنس، الموعد غداً، في مكتبي، الساعة الثانية عشرة.

وانطلقت السيارة، كانت ليلة شتوية باردة، تلبدت سماؤها بالغيوم، وهدر فيها الرعد وزمجر، ولكن المطر لم يهطل.

- ١٢ -

أمام ملهى النجمة نزل توفيق وأبو نجيب، وهيأ لهما النادل مائدة قريبة من منصة الغناء.

شربا الكأس الأولى، بصحة توفيق، ثم صب أبو نجيب الكأس الثانية.

ولم تلبث أن دارت الخمرة في الرؤوس، وملأت المغنية الأسماع بصوتها، مثلما ملأت الأحداق بمفاتن جسمها، والعيون ترنو إليها خلال جو مفعم بالدخان والأنفاس والروائح.

ونضح الجسم حرارة هوجاء، ففك توفيق ربطة عنقه، ثم مسح جبينه، ومال على أبي نجيب، وسأله، وهو يشير إلى الراقصة:

- ما رأيك فيها؟

- فاتنة.

وصب الكأس الخامسة، ورشقها في حلقه، ثم ابتلعها، فأحس باحتراق شديد، فمد يده إلى صحن المخلل، وملأ فمه بقطعة منه كبيرة، لم يلبث أن مجها، ثم رماها على الأرض.

ومرة أخرى مال على أبي نجيب وسأله:

- ألا تحفظ الشعر!

فأجابه بقرف:

- لا، لا أحفظ الشعر.

وصب كأساً، ابتلعها بصعوبة، ثم تناول سيكارة من علبة التبغ الملقاة على المائدة، ووضعها بين شفتيه، وراح يحاول إشعالها، فأشعلها أبو نجيب.

ونادى النادل، فجاءه ملبياً، فقال له:

- خمرتكم سيئة.

انتفض النادل، وهمّ بتوفيق، ولكن أبا نجيب منعه، وحال بينهما، ونهض توفيق يلعن ويشتم، وهو يترنح:

- سأشرب الخمرة في ملهى فينوس، هيا، لنذهب إلى فينوس، الخمرة هنا قذرة.

ونهض أبو نجيب، فقاده إلى الخارج، وهو يترنح.

- ١٣ -

نهض مثقل الرأس، محطماً، شد جفنيه شدّاً، فأزعجه النور، فألقى برأسه فوق الوسادة.

وتحرك شيء في أحشائه، فنهض، وأحشاؤه تجيش، فمضى حافياً، ومد يده إلى مقبض باب المطبخ، يريد فتحه، ولكن يده راحت في الفراغ، وكاد يسقط، فشتم.

شد جفنيه ثانية، وتمطى، ثم اطمأن إلى أنه بلغ باب المطبخ حقيقة، ففتحه، ومضى إلى المغسلة، وضع رأسه تحت الصنبور، وتقيأ، ثم رجع إلى الفراش.

الولد سيحطم سيارتي، مضحك، ها قد رجعت بها من الملهى، لا، لن يستطيع، يجب أن أسرع، قبل أن يفجر عجلتها، سأخنقه، ما أقوى قبضته على الموسى، سيفجرها، لا، سأخنقه بأصابعي، قبل أن يفجر العجلة، لقد عرفته، إنه أخو الولد، والأستاذ يساعده، يسعى مثله إلى تفجير العجلة الثانية، والحارس العجوز وأحمد الحلاق الأحمق يسعى كل منهما إلى تفجير العجلتين الأخريين، ولكنهم جميعاً لا يفعلون، بل إنهم يحملون السيارة، وأنا أقودها، المقعد ملطخ بالدم، والمقود، سيقذفون السيارة في البحر، ولكن البحر قذر وملوث كالطين، لزج، الشيخ سلام وأبو نجيب يحاولان فتح باب السيارة، وأنا في الداخل وراء المقود، أكاد أختنق، سأخرج، أختنق، أختنق.

ونهض من السرير مذعوراً، فتح عينيه، ونزل من السرير، ومضى إلى المطبخ، أعد فنجان قهوة، وارتشفه.

– ١٤ –

بلغ المشروع قبل التاسعة.

كان الجو أكدر، الريح تعصف، والبرد قارس، وثمة قتام وغبار، غيم داكن يملأ السماء، ورعد يزمجر.

نزل من السيارة، فاستقبله الحارس:

– في الداخل رجل ينتظرك.

– ماذا يريد؟!

– لا أعرف.

مضى إلى داخل البناء، وفي غرفته التقى رجلاً، عرف فيه على الفور عم الولد الذي صدمه بسيارته.

امتعض، لكنه لم يظهر انفعالاً ما، وهيأ نفسه لكل الاحتمالات، نهض الرجل وحياه، فرد عليه بجفاء، وقعد.

– توفيق بك، جئت أخبرك بأمر لم أرد أن أكتمه عنك.

أشعل سيكارة، وأظهر عدم مبالاته.

– اليوم، وفي الصباح الباكر، أخبرنا رجل من هذا الحي أنك أنت كنت تقود السيارة.

– وهل تصدق ما قال؟!

– أنا، أنا قد لا أصدق، ولكن هناك من يصدق كلامه.

سأله بضيق واشمئزاز:

– من يصدق؟

– ابن أخي، شقيق الولد.

لم يعلق بشيء، فأضاف الرجل:

– **ابن أخي يختلف عنا، فهو شاب، ومتعلم، ومندفع، وأفكاره غير أفكارنا.**

سأله بحدة:

– **وأنت؟!**

– **أنا، أنا تعرفني درويش وطيب، وأنت رجل كريم، وأنا أردت خدمتك فقط، وإذا أمرت بشيء، فأنا بالخدمة.**

نهض، رمى بقية سيكارته، سحقها بقدمه، نظر إلى الرجل، ثم قال:

– **أنت رجل طيب، وأنا لن أنساك.**

واتجه نحو الباب، وقبل أن يخرج، التفت إليه، وقال له:

– **لقاؤنا في مكتب أبي نجيب، بعد الظهر.**

وخرج، غير مبال به، وأخذ يهبط على الدرج، وعند المدخل، التقى بالأستاذ وخطيبته، فلم يبال بهما، وبادر الأستاذ إلى سؤاله:

– **هل رأيت صاحب الدار؟!**

تردد قليلاً، ثم أجاب:

– **آه، رأيته، وحدثته عنك، ولكنه أصر على السعر، خمسة وسبعون، إذا وافقك فمر بمكتب الأمانة، مساء.**

وتركهما، ومضى إلى سيارته، دخل فيها، وانطلق.

– ١٥ –

الريح تثير الغبار، وسيارته تنطلق.

بلغ القصر العدلي نحو العاشرة، فوجد المحامي في انتظاره.

– **هل انتهيت من معاملة الإفراج عن صالح؟**

– **لم يبق سوى توقيع الوكيل العام.**

فمد يده إلى جيبه وأخرج رزمة نقدية، وسأل:

– **يكفيك خمسة؟!**

فأجاب مستنكراً:

– **أنا، أنا لا أريد شيئاً.**

– **أقصد..**

– **لا بأس.**

وناوله بضع أوراق نقدية، فدسها في جيبه، تحت رداء المحاماة.

وأمام سيارته، رأى أبا عمر، واقفاً ينتظره، والريح تعبث بالشعرات القليلة المتبقية في رأسه.

بادر أبو عمر إلى سؤاله:

- **هل رأيته؟!**

- **نعم، ودفعت له.**

- **كيف تم هذا؟!**

- **كالعادة.**

دهش أبو عمر، ثم فطن، فقال:

- **أقصد الرجل، أبا الولد.**

- آه، **ظننت المحامي، وهل هو هنا؟!**

- **نعم، رأيته منذ دقائق.**

- **لعله...**

فقاطعه قائلاً:

- **لا تتوقع شيئاً، واترك الأمر، سنراه عند أبي نجيب بعد ساعتين.**

ودخل السيارة، ولما دخل أبو عمر، سأله:

- **إلى أين سنذهب؟!**

فأجابه، وقد صار إلى جانبه في المقعد:

- **سنذهب للقاء صاحب الدار التي حدثتك عنها، موعدنا الساعة العاشرة والنصف، في مقهى النصر.**

- **لا بأس، أمامنا ربع ساعة.**

أشعل سيجارته، وهو ينطلق بالسيارة، وبعد شيء من الصمت، سأل:

- **هل تحدثت معه عن السعر؟**

- **يطلب مئة وخمسين، والدار تساوي مئتين، ولكني واثق بأنه سيبيعها بمئة وعشرين، فهو يريد الخلاص من مشكلة تأجيرها.**

لم يعلق بشيء، ولكنه رفع زجاج النافذة المجاورة له، وقال:

- **الطقس سيّئ هذا اليوم.**

وكانت الريح في الخارج تعصف، مثيرة الغبار.

- ١٦ -

وقّعا في المقهى مع صاحب الدار عقد البيع، وهم يرشفون القهوة، ثم خرجوا جميعاً، فسفعتهم الريح العاصفة، وعلى الفور قال أبو عمر:

- **سأذهب مع الرجل إلى القصر العدلي، لتثبيت عقد البيع، ولرفع دعوى إخلاء على المستأجر، فوراً**

– لا بأس، سأنتظرك في المكتب، ونذهب بعد ذلك إلى موعدنا عند أبي نجيب، لا تتأخر.

ودخل سيارته، وانطلق بها.

بلغ المكتب، فرأى صالحاً، فاستقبله بالعناق، ولما سأله عما جرى، أجاب:

– اطمئن، سألتقي به عند أبو نجيب، بعد ساعة، وسأدفع له.

أشعل سيكارة، وقعد ينتظر، صب له صالح القهوة المرة مرتين، وزمجر الرعد، وهطل المطر، ولكنه لم يكن غزيراً.

تأمل السيارة من وراء الزجاج، وذكر الحلم، أحس بشيء من الضيق، الوقت يمضي، والموعد حان، وأبو عمر لم يجئ.

فتح الباب، ودخلت امرأة في الخمسين، مرهقة، اتجهت إلى توفيق على الفور:

– توفيق بك، والله زوجي طائش وعقله مريض، الله يهديك للخير، أسقط دعواك، وارحم خمسة أولاد، ما لهم معيل، ناموا من غير عشاء، زوجي رجل درويش، ما كان يقصد الإساءة إليك.

سألها :

– زوجك أحمد الحلاق؟!

وأخذت تبكي، وتنتحب، فصمد، ولم يستجب، بل أخذ يؤكد تهمة زوجها، بتهديده، والهجوم عليه في المخفر، فزادت المرأة ضعفاً وانتحاباً، وتدخّل صالح، فوعدها بإطلاقه، فاصطنع توفيق بعض اللين، ثم خرجت، وهي تتمنى له الخير، وتدعو له.

وبعد خروجها زاد ضيقه، رشف فنجان قهوة، وحار في أمره، هل يذهب وحده؟

فتح الباب، ودخل الأستاذ وخطيبته، وبادر الأستاذ إلى القول:

– لم نشأ الانتظار إلى المساء، فجئنا لندفع لك رعبون الدار.

فبادر هو إلى القول:

– جئتما في الوقت المناسب، وهذا هو صاحب الدار.

وأشار إلى صالح، وهو يغمز له، ثم أضاف:

– إذا شئتما فادفعا له الرعبون.

وقبض منهما صالح عشرين ألفاً، رعبوناً، ونظّم لهما عقد بيع، ولما خرجا ناوله المبلغ، فاستل منه ورقتين، وردهما إليه، ثم وضع المبلغ في جيبه، وهو يقول:

– لقد تأخرت، لا بُدَّ من خروجي.

ودخل في سيارته، وانطلق، والمطر ينسكب.

– ١٧ –

بعد نصف ساعة رجع إلى المكتب، فرأى أبا عمر يهم بمغادرته، فسأله:

– إلى أين؟!

– الآن وصلت إلى المكتب، وأخبرني صالح أنك لم تنتظرني.

– انتظرتك، ولكنك تأخرت.

– ولكن...

قاطعه قائلاً:

– على كل حال، ذهبت، ورجعت.

وتدخل صالح، فسأل بقلق:

– خبّرنا، ماذا جرى؟!

– قبض عشرين ألفاً، وانتهى الأمر.

قال أبو عمر غير مصدق:

– لا، لم تذهب بعد، أنت تمزح؟

فرد عليه:

– إذا كنت لا تصدق، فاسأل صالحاً.

– هكذا ببساطة؟!

– نعم، وأكثر مما تتصور، شربنا القهوة المرة، وودعني إلى الباب، هو وابنه الكبير، وإخوته الثلاثة، لم نقعد أكثر من ربع ساعة، ولحقني الشيخ سلام، فأعطيته خمسمئة ليرة.

ومرت فترة صمت، قطعها صالح بقوله:

– الحمد لله، مرت بسلام.

وأضاف أبو عمر:

– سأزوره، أنا مساء، لأعطيه خمسة آلاف.

نظر إليه توفيق، وضحك، ثم قال:

– الأمر انتهى، ولا معنى لذلك، أبداً.

وبعد شيء من الصمت، سأله:

– اخبرني، لماذا تأخرت؟!

– آه، أنت أذهلتني، فكدت أنسى، خبر موثوق، الوزارة تناقش قراراً بتأميم تجارة البناء.

نظر إليه، وهو يشعل سيكارته، وضحك ثم قال:

– لا بأس، نغير.

– وماذا تغير؟!

– الوزارة، أو التجارة.

ثم أضاف، هو يهم بالخروج:

– تعال نذهب إلى المشروع، لنطمئن عليه، قبل أن يصدر قرار التأميم.

ودخلا السيارة، ولم تلبث أن انطلقت بهما، تحت المطر المنهمر غزيراً، والمسّاحات تتحرك بحدة وعنف، فتتضح الرؤية أمام توفيق، وأبو عمر إلى جانبه، وتمضي السيارة، منطلقة بسرعة أكبر.

دعوة خاصة

– هل جاء ابن أختي؟!

يسأل زوجته فور دخوله إلى البيت، فتجيب:

– منذ نصف ساعة، وهو ينتظرك في الداخل، ولكن لماذا تأخرت؟ !

– لماذا تأخرت؟! وتسألينني أيضاً؟! تأخرت لأني مررت بالسوق واشتريت بطاطا، واشتريت مجلة، نسيت أني على موعد مع المحترم ابن أختي.

ويناولها كيساً صغيراً، كان يحمله، ثم يدخل إلى المطبخ، فيقعد إلى المائدة، ويقلب صفحات المجلة.

– شيء مقرف، في المدرسة دروس، وفي البيت دروس، كان عليك أن تقولي له: خالك ليس في البيت، وتصرفيه. على كل حال هاتي الطعام.

– سأل عنك الأستاذ خالد.

ويهب واقفاً، ليسألها:

– الأستاذ خالد، جاء إليّ بنفسه؟!

لا، أرسل إليك ابنه، جاء إليك بالسيارة، ليصطحبك معه.

– لأمرٍ هامٍ إذن.

– لا أعرف.

– متى جاء.

– منذ دقائق فقط وطلب مني أن أبلغك ضرورة زيارته بنفسك فور رجوعك إلى البيت.

– أنا ذاهب إليه الآن.

– ولكن تناول شيئاً قبل أن تذهب.

– لا، سآكل حين أرجع، ولكن عليّ أن أبدّل معطفي، هاتي معطفي الأسود.

– ولكنه ليس أفضل من معطفك الذي ترتديه.

– لا بأس، حضّري البطاطا إلى أن أرجع.

– سأذهب بعد قليل، لديّ اجتماع مع مجلس الإدارة.

– وما دورك أنت في الاجتماع ؟!

– سأساعد أمين سرّ المجلس على تنظيم محضر الاجتماع.

ويعلو في الداخل صوت أمل، وهي تبكي، فتضمها إليها، ولكنها ترجع لتسأله:

– ماذا أقول لابن أختك؟!

– قولي له: خالك لم يأتِ، سوف يتأخر.

– ولكنه سمع صوتك.

– قولي له: لدى خالك عمل ضروري، ثم اصرفيه.

تنظر إليه بصمت، فيحمل المجلة، ويتجه نحو الباب، وأمل ما تزال تبكي في الداخل، ولكنه يرجع ليناولها المجلة.

– لا، خذي المجلة، لن أحملها، فهي رخيصة، وليس من اللائق أن أحملها أمام الأستاذ خالد.

– لا قيمة لذلك كله، وفي كل الأحوال، لا تنسَ أن تحضر معك علبة حليب لأمل.

*

وفور وصوله إلى الشارع، يشير إلى سيارة أجرة، ويصعد فيها.

ستصل في خمس دقائق، يجب ألا تتأخر، سيراك من نافذة غرفته وأنت تنزل من السيارة، سيقدّر ذلك، وسيدرك أنك حريص على وقتك، إنه يعلم أنك تنصرف من المدرسة في الرابعة، وتصل إلى بيتك في الرابعة والنصف، أو قبل ذلك، فالمدرسة قريبة من بيتك، لقد استطاع تقدير الوقت تقديراً صحيحاً، أي إنه أرسل إليك بعد أن تكون قد وصلت إلى بيتك، وتناولت طعامك وشربت كأس شاي، الساعة الآن الخامسة، وبضع دقائق، صديق وفيّ، ما يزال يذكرك: وأنت لا تقوم بواجبك نحوه، في العام الماضي دعاك إليه، وفي مثل هذه الأيام، في شهر أيار، كان ابنه همام في الصف الثالث الإعدادي، وطلب منك أن تختبره ببعض الأسئلة في الأعراب، إنه يقدر ثقافتك، ويثق بك، لا يمكن أن يقدر المثقف إلا مثقف، كان هو نفسه مدرساً، مثلك، كان مدرساً لمادة التاريخ، الزميل الوحيد الذي استطعت أن تطور علاقتك معه إلى صداقة، ولكنَّه قدّم استقالته، وأخذ يعمل بالتجارة، أربع سنوات مرت، أو خمس، وإذا هو صاحب فيلاّ وسيارة، ورصيد في البنك، وأصدقاء في كل مكان، يمكنه أن يسعى لك لكي تدرّس في الثانوي بدلاً من التدريس في الإعدادي، ولكن لا، لا تطلب منه ذلك، التدريس في المرحلة الثانوية يحتاج إلى تحضير، يكفيك التدريس في المرحلة الإعدادية، ابن أختك الأجرب حمل لك كيساً صغيراً فيه أربع تفاحات أو خمس، "**تفضل خالي**"، وبالمقابل يجب أن تساعده على تحضير دروسه، خيرٌ له من الدراسة أن يساعد والده على دفع عربة الخضر والفواكه، طريق الدراسة شاقٌّ وطويل، وهل يستطيع والده أن يساعده على متابعة دراسته، وأختك تظنُّ أنَّ فقر زوجها سينتهي حين يأخذ ابنها الشهادة الإعدادية، لعلّ الأستاذ خالد أرسل إليك لمثل ما أرسل إليك في العام الماضي، ابنه في الصف الأول الثانوي، قد يسألك عن الممنوع من الصرف، إنه الدرس الوحيد الذي لم تتقنه من دروس النحو، العلَم الأعجمي، وما كان على وزن (فُعَل)، وصيغة منتهى الجموع، والسائق ينظر إليك في المرآة، لقد أحسنت صنعاً إذ اخترت المقعد الخلفي وقعدت في الطرف الأيمن منه، سيظن أنّك من سكان هذا الحيّ الراقي، سيظنك طبيباً، أو محامياً، ولعل هذه هي المرة الأولى التي تدخل فيها إلى حيٍّ راقٍ مثل هذا الحي.

*

وفي الباب تستقبله الخادمة، ثم تقوده إلى الداخل.

- تفضل، من هنا، السيدة بانتظارك.

- نعم؟!

- السيدة تنتظرك.

- والأستاذ خالد؟!

- السيد سيحضر بعد ساعة.. تفضل.

السيدة تحشر رأسها في الوعاء الزجاجي اللعين الذي تراه لدى مزينات الشعر، ولا تعرف له اسماً، وهي تلتف بمنشفة وردية، يبدو أنها خرجت لتوها من الحمام، ومزين الشعر يحييك: "**بونجور مسيو**"، ولا تعرف ماذا تقول، تحاول تجنب النظر إلى زوجة صديقك، ولكن أعلى صدرها العاري يخطف بصرك.

- تفضل أستاذ عصام.. تفضل، أنا أرسلت إليك ابني، على المنضدة الصغيرة أمامك مجلة، قلِّبْ صفحاتها، وستعرف عندئذ لماذا أرسلت إليك.

المقعد أُعِدَّ لك خاصة، قريباً منها، ويداك تقلِّبان صفحات المجلة، ولكنَّك لا ترى شيئاً، ولا تفهم، الوعاء الزجاجي يقهرك، ولا تعرف اسمه، لا بأس، ثبِّتْ ناظريك عليه، وتجنب النظر إليها، فكِّر في اسم له، مجفف، نعم، مجفف الشعر، لا بأس، ما لك لا تحس ولا تبصر، كأنك غارق في لجة، لا تستجيب، ولا تتأثر، متهاون، ضعيف، مخدَّر، إنها الأنوثة المكتملة، الناضجة، امرأة، ولا شيء غير ذلك يمكن عنها أن يقال، تحسّ أنها زوجة وأم، وصديقة وعشيقة، تغريك وتقصدك، تبيحك كل شيء، ولا تمنحك شيئاً، هي كيان، تحسّ أنك إزاءه كيان آخر، ثم تحس أنك لست بشيء، ولا ينقذك سوى الخادمة، وهي تدخل نضرة، موردة الخدين.

- سيدتي، أحضر قاسم ثوبك.

- دعيه يدخل.

ويدخل قاسم بشاربيه الغليظين.

- هات يا قاسم، ابسط الثوب، دعني أره.. أوه، دعني أره من الطرف الآخر، لا، أبداً، ليس كما تمنيت، ما رأيك يا أستاذ عصام؟!

- أوه، نعم، رأيي، أنا؟ رأيي، إنه جميل جداً.

- ولكن فتحة العنق عند الظهر صغيرة، أرجعه يا قاسم إلى الخياط، وأمره بتوسيع فتحة العنق، لا تتأخر.

- أمركِ سيدتي.

- يا قاسم... أحضر لي معك وأنت راجع حبات لالتهاب الحنجرة.

- أمرك سيدتي.

- في كل مرة أحضر فيها احتفالاً، يا أستاذ عصام، تلتهب حنجرتي، بسبب دخان السكائر، ولا بد في كل يوم من حضور حفل، أو سهرة، أنت تعرف زوجي وأصدقاءه، حنجرتي ستتلف، ألا ترى من الضروري أن أتناول حبات لالتهاب الحنجرة؟!

- ضروري.

- نعم، أخبرني يا أستاذ عصام، هل استطعت أن تعرف لماذا أرسلت إليك؟!

- نعم، أقصد، لا، لم أعرف.

- أظنك تعرف اهتمامي بالكلمات المتقاطعة، انظر في صفحة التسليات، هل لاحظت أن الكلمات المتقاطعة تتعلق هذه المرة باللغة العربية، هات المجلة من فضلك.

ويغمرك شذى ناعش وأنت تناولها المجلة، ويرتج صدها البض، وتتألق عيناها، وتحسّ بدم يفور في الشفتين المكتنزتين، ثم تغوص ثانية في اختناق بليد فلا تحس بعد ذلك شيئاً.

- مودّة، أستاذ عصام، ما نقيضها؟!

- نعم؟!

- مودّة.

- نقيضها .. كراهية.

- لا، لا، أريد كلمة من أربعة أحرف.

- بغض.

- لا، هذه من ثلاثة أحرف، فكّر قليلاً.

- في الواقع، أحتاج إلى معجم.

- لا بأس، اشرب الآن فنجان القهوة، ويمكنك أن تفكر بعد ذلك، لن تحتاج إلى معجم.

كأنه الفنجان الأول ترشفه في حياتك، كل شيء يدهشك، يفجؤك، يغمرك، وتسقط في شلل تام، لا تحس طعماً، ولا شكلاً، ولا تجد كلمة معبرة، أو مناسبة، أو لائقة، في الصمت حكمة، ولكن صمتك عجمة، أين نحوك وبلاغتك وذلاقة لسانك؟!

- في الواقع، يا أستاذ عصام، لا أعرف كيف أمضي وقتي وأنا أنتظر شعري حتى يجف، كما لا أعرف كيف أمضيه قبل ذهابي إلى حفل رسمي، وحين يجتمع الأمران، أكاد أجن، فلا أجد غير الكلمات المتقاطعة.

- شيء ممتاز جداً.

- سأشارك بعد قليل في افتتاح المبنى الجديد لجمعية العاملين في شركة المنسوجات، إذا لم يكن لديك أنت والمدام موعد هذه الليلة قدمت لكما بطاقة لحضور حفل الافتتاح.

– شكراً.

– هل تعرف أنّ صديقك الأستاذ خالداً هو الذي تعهد مشروع المبنى، مدة تنفيذ المشروع كانت في العقد سنة، ولكنه استطاع تنفيذه في تسعة أشهر، فقط، أنت تعرف أن دائرة أصدقائه ومعارفه واسعة.

– شيء عظيم جداً.

– نعم، أخبرني، هل ذكرت نقيضاً لكلمة مودة؟!

– أوه نسيت، أقصد، شُغلت بفنجان القهوة.

– لا بأس، ما رأيك في أن تأخذ المجلة إلى البيت، وتسهر في حلّ الكلمات المتقاطعة؟!

– فكرة جيدة.

– إذن أنا بانتظارك غداً في الموعد نفسه.

– أنا بالخدمة.

ويرجع إلى البيت، فيجد بطاقة على المائدة: "صرفت أحمد، ولكنه رجع هو وأمه، تركتهما في البيت وخرجت، ستجدهما في انتظارك، اعتنِ بأمل، أرجو ألا تكون قد نسيت علبة الحليب، زوجتك المخلصة".

– أهلاً أختي أم أحمد.

– لا ترحِّبْ بي، ولكن قل لماذا لم تستقبل ابني، ولم تعطه درساً هذا اليوم؟!

– لا أعرف، في الواقع لا أعرف ماذا أقول لك، عندي عمل، عندي أعمال كثيرة.

– هل تريد أن أرسل ابن أختك إلى أستاذ آخر؟!

– لا، لا أريد.

– إذن؟!

– قلت لكِ لديّ أعمال كثيرة.

– الآن فهمت، خذ هذه مئة ليرة، وفّرتها من مصروف البيت، وإذا نال الشهادة، فلن أبخل عليك بما أستطيع توفيره.

– لا، لن آخذ شيئاً .

– لن تأخذ أجرة، ولن تعطيه دروساً، أجبني، هل هو غبي، أجبني، أنا أختك، قل لي، إذا كان غير جدير بالدراسة حدّثت والده، وأخرجناه من المدرسة؟!

– لا، لم أقل ذلك.

– يا أخي، الدراسة لنا نحن الفقراء هي طريق الخلاص، هل تريد أن يصبح مثل والده بائعاً متجولاً تطارده شرطة البلدية، وتصادر كل يوم ميزانه، أم لعلك لا تريد أن يكون مثل خاله، أستاذا مثقفاً؟!

أنا الأستاذ المثقف؟! آه، يا أختي، أنت لا تعرفين، أنا التلميذ، أنت الأستاذ، الآن عرفت، ليتني أكون تلميذك، ولكني كبرت، وهرمت، وعجزت، ولن أتعلم بعد اليوم شيئاً، الآن عرفت، عرفت كل شيء، ولكن لن تُجْدِيَنِي معرفتي شيئاً، ولا غفران يرتجى، أنا مريض يا أختي، وابنك لا يحتاج إلى دروسي، وأخشى أن أسمم فكره، أخشى أن يعرفني فيحتقرني، وأخشى ألا يعرفني فيخدع، أما أنا فقد عرفت كل شيء.

– آه، نعم، أفكر، في الواقع، أنا لا أدرّس طلاب الصف الثالث الإعدادي، ولكنّ زميلاً لي في المدرسة هو الذي يدرّسهم، وسيبدأ في الأسبوع القادم دورة يدرس فيها عدة طلاب، وسأطلب منه أن يضمّ أحمد إليهم، ولن يأخذ منه أجرة، سأوصي به.

وتذهب أخته وابنها، فيمضي إلى المطبخ، ويعد طبقاً من البيض، ويقعد يتناوله، وقد وضع إلى جانبه على المائدة المجلة، وهو ينظر إلى الكلمات المتقاطعة، ويفكر في حلها، وتستيقظ أمل، فيعدّ لها الحليب، ويرضعها، وقد بسط إلى جانبها المجلة، وعيناه تتابعان الكلمات المتقاطعة.

وترجع زوجته فتراه غافياً في مقعد عميق، والمجلة بين يديه.

الدّار الجديدة

رفع النظارة عن عينيه، وأرجع ظهره إلى وراء، نظر إلى ساعة يده، إنها الثانية عشرة، والجداول الثلاثة التي بين يديه لم يستطع إتمام تدقيقها، مسح جبينه بيده، ونظر إلى باب غرفته المغلق، بلونه الفضي الكئيب، ثلاث ساعات، من التاسعة إلى الآن، لم ينجز شيئاً، وذهنه ما يزال غير قادر على التركيز، ماذا يفعل؟ هل يكسر القلم الذي بين يديه؟ هل يمزق هذه الجداول؟ أو يذهب إلى سكرتير المدير ويرجوه ويتوسل إليه كي يخرج له دفتر الدوام ليوقع فيه؟!

إنها المرة التاسعة، ولعلها العاشرة، التي يستيقظ فيها متأخراً، على غير عادته، فيخرج من بيته غاضباً، صافقاً الباب وراءه، من غير أن يتناول فطوره، أو يرشف كأس شاي، ويصل إلى وظيفته، بعد رفع دفتر الدوام، متأخراً أكثر من نصف ساعة، وهاهو ذا يترقب بين حين وآخر أن يفتح الباب، ويدخل الآذن، ليقول له: "**تفضل المدير يطلبك**"، أو أن يرن جرس الهاتف ليسمع صوت المدير يستدعيه إلى مكتبه.

لم يمض على سكنه في الدار الجديدة أكثر من ثلاثة أشهر، ولكنه لم يتوقع أن يحدث مثل هذا الأمر، في الأيام الأولى شعر بالسعادة والارتياح، ثلاث غرف، وشرفة، ومطبخ، الجدران بيضاء متألقة، والأبواب نظيفة جديدة، والحمّام أكثر الأشياء متعة، ولكن تكشفت لديه بعد ذلك أمور جديدة.

كان ضائقاً بالغرفة الوحيدة التي كان يستأجرها في تلك الدار، ذات الفناء الفسيح المكشوف، والتي يشترك فيها مع آخرين، يستأجرون في الدار نفسها ثلاث غرف أخرى، كان ضائقاً حقاً، ولكنه اليوم أكثر ضيقاً، في داره هذه، ذات الغرف الثلاث.

ما كان يستيقظ متأخراً أبداً، فالشمس تسقط في فناء تلك الدار منذ بزوغها، ويملأ النور غرفته، فيستيقظ، ويمضي إلى الفرن، في الخامسة، فيشتري الخبز الساخن وبعض الخضر، ثم يمر بدكان "**أبو حازم**" الفوال، فيملأ صحنه بنصف ليرة، ويرجع إلى البيت، ليهنأ بالفطور مع زوجته وولديه، وهو يحدِّثها عمّا ستعده للغداء، وقبل أن يخرج يقبّل ولديه، ويسأل زوجته عمّا تحتاج إليه من السوق ليحضره معه.

واليوم في الدار الجديدة، تغيّر كل شيء، يستيقظ، فإذا الغرفة ما تزال معتمة، ويضيء المصباح، وينظر إلى الساعة، فإذا هي تشير إلى السابعة، أو السابعة والربع، فلا يصدق، ويسرع إلى المطبخ، ويخرج منه إلى الشرفة، ويتطلع من خلال الأبنية المرتفعة أمامه، إلى السماء، فيرى الشمس منعكسة على الجدران، فيرجع إلى زوجته، يوقظها غاضباً، وينادي أحمد وسميراً، ويرتدي ثيابه على عجل، وهو يصيح بزوجته:

– **أسرعي بإرسال أحمد إلى المدرسة، واعتني بسمير، ولا تتركيه ينزل إلى الشارع.**

وتسأله:

- وماذا سنطبخ هذا اليوم؟

فيجيبها:

- لا أعرف.

ويخرج صافقاً الباب وراءه.

حقاً إنَّ في داره الجديدة ثلاث غرف، ولكنه لا يعرف أين يقعد؟ وكيف ينام؟ وأين يسهر؟ غرفة واحدة للنوم، لا ترى النور، وأخرى للجلوس، أصغر من الأولى، وثالثة، مثل الثانية، أو أصغر منها، تُركت لأحمد وسمير، يلعبان فيها في النهار، وينامان فيها في المساء، كما ألقيت فيها بعض الأشياء المهملة، أو القليلة الاستعمال.

الشرفة حاول القعود فيها ذات مساء، هو وزوجته وأحمد وسمير، فلم تتسع لغير كرسيين، وحين أرادت زوجته نشر الغسيل فيها، ضاقت عن الاتساع لحاجاتهم القليلة.

كيف تورّط بشراء هذه الدار؟!

بعد عشر سنين من الزواج، والكدح، مع زوجته، هي تخيط الثياب، للجارات والأقارب، وهو يدّخر شيئاً فشيئاً من راتبه الضئيل، ويعمل أحياناً في أعمال إضافية، لم يظفر بغير هذه الدار، ونصف ثمنها استدانه من البنك، بفائدة كبيرة، وجزء من نصف ثمنها الآخر استدانه من بعض الأصدقاء.

وابنه أحمد نفسه، ما كان يشعر بالضيق، في الدار القديمة، كان يلعب مع أولاد الجيران، في فنائها الواسع الفسيح، ثم جاء سمير، وكبر، فأخذ يلعب معهم أيضاً، وأم أحمد ما كانت تضيق أيضاً، فهي مشغولة بالخياطة لجاراتها، وإذا ما ضاقت، مضت لزيارة إحداهن.

واليوم، أم أحمد تشكو، وتقول: **"لا أرى الشمس، وقد بعدت عن جاراتي، والشرفة محاصرة بالأبنية الشاهقة، ولا تطل على شيء يمتع"**، وأحمد يضيق ويقول: **"أنا متنازق"**، وسمير يطلب النزول إلى الشارع، ليلعب مع أولاد الجيران.

وقد زاد البيت ضيقاً شراؤه دراجة ذات ثلاث عجلات لسمير، رأى مرة ولداً مثل سمير يلعب بدراجة، فتمنى أن يكون لابنه سمير مثلها، وحدّث أم أحمد عن ذلك، فأخذت تلح عليه كل يوم بشرائها، وفكّر طويلاً، وتردد، ثم أقدم على شرائها، فأحمد يذهب إلى المدرسة، وسمير يبقى في البيت وحده، مع من سوف يلعب؟! وأمه مشغولة بأمور البيت، والخياطة، على كل حال جاءت الدراجة إلى البيت، وقد حملها على كتفه، وصعد بها ستين درجة، وأخذت الدراجة تدخل وتخرج، من غرفة إلى غرفة، تصدم الأبواب والجدران، وأحمد يشغل بها عن دراسته، وينازع سميراً فيها، وإذا ما اتفقا على اللعب بها معاً، طلبا النزول إلى الشارع، والحقّ معهما، الأطفال مثل العصافير، تحتاج إلى سماء واسعة تحلّق فيها، وهما مخنوقان بين أربعة جدران.

وفتح الباب ودخل عليه زميله أبو مروان، فرحب به، وقعد أبو مروان على كرسي أمام مكتبه، وبادر إلى سؤاله:

– ما بك يا أبو أحمد؟! يبدو عليك التعب؟!

دقّ جرساً وزفر زفرة طويلة، ثم أجاب:

– ملاحظتك صحيحة يا أبو مروان، ولكن ماذا أقول لك؟!

ودخل عليهما الآذن محمود، فطلب منه كأسين من الشاي، وبعد خروجه، أضاف:

– بصراحة يا أبو مروان، اليوم تأخرت عن الوظيفة ولم أوقِّع في دفتر الدوام.

ضحك أبو مروان، ورد عليه قائلاً:

– لا تخف، أنا اليوم وقعت في الدفتر أمام اسمك، وصلت مثلك متأخراً، قبل رفع الدفتر بدقائق، ووقعت أمام اسمك.

– ولكن الآذن رآني وأنا أدخل إلى الدائرة بعد التاسعة.

– وهل تتوقع أن يخبر المدير؟!

– كل شيء متوقع.

– على كل حال، لم تخبرني عن سبب تأخّرك، فقد لاحظت أنك في الأيام الأخيرة بدأت تتأخر.

ووجد نفسه منساقاً وراء الحديث، فأعاد عليه ما كان قد دار في رأسه، حكاه، حدث به صاحبه، سرده، رواه له، أحس بشيء من الارتياح، ولكنه وجد نفسه يلتقي ثانية بهمومه، كما وجد أن حديثه قد عمق إحساسه بألمه وزاده.

ولما انتهى من حديثه، قال أبو مروان معلقاً، بلهجة مختلفة:

– يا أبو أحمد، قلت لك ألف مرة، لماذا اشتريت داراً هناك في الطرف الشرقي من المدينة؟ البناء لاصق بالبناء، والدار ما فيها غير غرفتين أو ثلاث، مثل علب الكبريت، أنا أسألك: ما شفت الطرف الغربي؟ البناء الواحد هناك حوله حديقة، ولا يزيد على طابقين أو ثلاثة، وفي كل طابق شقة واحدة، أو شقتان على الأكثر، وفي كل شقة سبع غرف أو ثمان، ماذا أقول لك الآن؟! أنت قلبك أعمى.

نظر إليه أبو أحمد، وضحك، ثم أضاف وهو يزفر:

– لا والله يا أبو مروان، قلبي ما هو أعمى، ولكن جيبي هو الأعمى.

وصمت قليلاً، ثم أضاف، وهو يحاول اصطناع الضحك:

– اسمع، مرة كنت أتمشى هناك، في الطرف الغربي، فرأيت ولداً يركب دراجة بثلاث عجلات، فتمنيت أن أشتري مثلها لابني سمير.

– ولماذا تتمنى؟! اذهب واشتر واحدة، فالسوق مليئة بالدراجات.

- كلامك صحيح، فقد ذهبت واشتريت واحدة.

- إذن، انتهت المشكلة.

- لا، ما انتهت، قل بدأت، ماذا أحكي لك؟!

وصمت، وزفر زفرة طويلة، فسأله أبو مروان:

- أجبني، وإذا رأيت والد ذلك الولد يركب سيارة، فهل تتمنى لنفسك سيارة مثلها؟!

فأجابه وهو يضحك:

- أنا؟.. أنا طول عمري ما حلمت بسيارة، ولا فكرت فيها.

فقال يعلق بسخرية:

- ولماذا لا تحلم يا رجل، احلم واذهب إلى السوق واشترِ سيارتين لا سيارة، والله لو كنت مثلك، عندي في غرفتي خزانة حديدية مليئة بالأموال، لاشتريت عشرين سيارة، لا سيارة، أما أنت فلا تعرف سوى أن توزع كل شهر على كل الموظفين في الدائرة ما في خزانتك من أموال، ثم تظل بعد ذلك طول اليوم قلقاً، بسبب تأخرك نصف ساعة، لا أكثر.

أجابه وهو يضحك:

- كلامك صحيح، يا أبو مروان، صحيح.

- لا تظن أني أمزح، أنا أحكي بجد، وإلا فأخبرني من أين يأتي الناس بثمن دار لها شرفة بمساحة داري كلها ودارك؟!

ودخل الآذن محمود يحمل صينية، فيها كأسان من الشاي، فبادره أبو مروان، بالسؤال، معاتباً:

- تأخرت علينا كثيراً يا محمود؟!

فأجاب بجد وجفاء:

- المدير عنده ضيوف، وقدمت له طلباً قبلكم.

فقال أبو مروان بتواضع مفتعل:

- لا، لا، أنا آسف، يا محمود، الحق معك، المدير وضيوف المدير، قبل كل شيء.

أظهر محمود عدم اهتمام، والتفت إلى أبو أحمد وقال له ببرود مصطنع:

- على كل حال، قبل أن أنسى.. المدير طلب مني أن أخبرك أنه يريد أن يراك في مكتبه بعد ذهاب الضيوف.

ثم خرج، من غير أن يضيف شيئاً، أو ينتظر جواباً.

والتفت أبو أحمد إلى أبو مروان، يقول له:

- مثلما قلت لك، لا بُدَّ أن يكون الآذن قد أخبر المدير، فقد رآني أدخل الدائرة متأخراً

فأجابه بهدوء:

– ربما كان هناك شي آخر.. على كل حال، اشرب الشاي الآن، وليحصل بعد ذلك ما يحصل.

وتناول كأس الشاي، ارتشف منها رشفة، وهو ينظر إلى الباب المغلق، بلونه الفضي الكئيب، الشاي لا طعم له، الآذن محمود دائماً يأتي بالشاي السيئ، ولكن من أخبر المدير بتأخره؟! وكيف سيعتذر له؟ ماذا سوف يقول؟! هل يحدثه حديث الدار وضيقها؟! إنه منذ الصباح يتوقع مثل هذه الدعوة.

ورن جرس الهاتف، فرفع السماعة:

– ألو.. نعم.. نعم.. أنا سعيد راتب.. ابني سمير، نعم.. نعم.. سمير ابني، ماذا؟.. كيف؟ نعم؟ نعم.. أنا قادم، حالاً.

ووضع سماعة الهاتف، ونهض، ممتقع اللون، مضطرباً، وهو يقول:

– كل يوم، قبل أن أخرج من البيت، أوصيها: "لا تتركي سميراً ينزل إلى الشارع، اليوم، من الصباح، وأنا متكدّر..."

وسأله أبو مروان:

– ماذا حصل؟!

– سمير ابني في المستشفى، نزل إلى الشارع ليلعب بالدراجة، وصدمته سيارة.

* * *

المرآة

الدرجات تغيب من تحت قدميه، وهو يحلق فوقها، التقى بجاره، فعانقه، ثم مضى، وفي باب المديرية نهض البواب، وحياه، ولم يوقع في دفتر الدوام، تحت شجرة عتيقة وجد محفظة، داس فوقها، ثم وجدها في جيب معطفه، أمام عدة أنواع من البرادات الحديثة، وقف ينتقي أفضلها، ثم أشار إلى غسالة، وإلى جلاية، وإلى مكيف هواء، دخلت ابنته فذهلت، حدقت فيه، حدقت في موضع الأذنين، في موضع الأنف، دخل الحمال إلى المطبخ يحمل البراد، ووراءه آخر يحمل الجلاية، وحدقت في موضع عينيه، ثم صاحت: "**لا**"، كان وجهه قد أصبح ممسوحاً، لا أنف فيه ولا فم ولا عينَيْن، ظهر حمال ثالث يحمل مكيف هواء، أسرعت ابنته إلى الحمال، منعته من الدخول، وأغلقت الباب بعنف.

ونهض من سريره مذعوراً، فتح عينيه بصعوبة، ونظر حوله، كانت النافذة مفتوحة، والباب مغلقاً، شتم، وسحب ساعة يده من تحت الوسادة، نظر فيها، ثم استلقى، وغطى رأسه باللحاف.

ولكن لم يلبث أن سمع صوت الباب يفتح، فنهض، وإذا زوجته، فسألها:

– من أغلق الباب؟!

فأجابت:

– لا شك في أنه الهواء.

نظر إلى النافذة المفتوحة، وتثاءب، ثم ذكر شيئاً ما، فقفز، ومضى إلى المرأة، حدّق فيها، وتلفّت، شد عينيه، فتحهما بقوة، ولمس فمه، وأذنيه، ومسح على ما بقي من شعره.

سألته زوجته مستغربة:

– ما بك يا رجل؟

فأجاب باضطراب:

– لا شيء.

نظر إليها، مرتبكاً، ثم أضاف:

– حلم مزعج.

وطلبت منه أن يروي لها الحلم، فتردد، ثم حدثها عنه، فتأوهت، ثم قالت:

– حقق الله الأحلام.

رمقها بغضب، فقالت مستنكرة:

– ألا يحق لي أن يكون في البيت براد حديث، وغسالة تغسل وتنشف، وجلاية تريحني من الوقوف كل يوم ساعات وراء المجلى؟!

فكر فيما قالت، ثم قرر الخروج، من غير أن يشرب قهوة، أو يرى الأولاد.

ولما بلغ مبنى المديرية، رأى سيارة معاون المدير تقف، والمعاون ينزل منها، فانتظر، ثم تقدم منه وحياه، بتواضع وأدب، فردّ عليه، ثم قال له:

– مرّ بي بعد ساعة.

معاون المدير يطلبه، أمر غريب، دخل المبنى، وارتقى الدرج، ثم استقر وراء مكتبه، ينتظر قدوم زملائه.

ليطلبني، ليس للأمر قيمة، فما أنا إلا موظف الصادر والوارد، عملي مستقيم، منذ عشرين سنة، وموضعي هو نفسه، لم يتغير، القلم الذي أكتب به، والكرسي الذي أقعد عليه، كل شيء هو نفسه، لم يتغير، أسجِّل قرارات المديرية، وبريدها، الصادر والوارد، لم أتأخر يوماً عن عملي، ولم آخذ إجازة قط، حتى أيام العطل لا أعرف كيف أمضيها.

وقدّم زملاؤه، ولم يلبث أن سأله أحدهم:

– أراك اليوم متغيراً؟!

فاضطرب، ونفى ذلك، ولكن زميلاً آخر ألح عليه، فحدثهم عندئذ عن الحلم، فضحكوا طويلاً.

ولكنهم لاحظوا مرة أخرى اضطرابه، فسألوه عن الأمر، فاضطر إلى إخبارهم بأن معاون المدير قد دعاه إلى زيارته.

ولما حان موعد الزيارة، خرج، وهو يواري اضطرابه.

قرع الباب، ثم دخل، ربما منذ سنة، لم يدخل غرفة المعاون، شعر بفخامة المكان، وروعته، ملأ عينيه من المكتب الفخم، وأحس بقلبه يسرع نبضه، وبأنامله ترتعش؛ ولكنه لم يلبث أن سخر من نفسه، وذكر أنه موظف في الدرجة السابعة، وقد جاوز الخمسين، وليس له بعد ذلك من مغنم في الحياة، لا شك في أن أولاده بحاجة إلى ما يؤمن لهم مستقبلاً أفضل، ولكنه مدرك أنه لا يستطيع فعل شي، في سبيل ذلك، فالراتب محدود، والإمكانات معدومة، والوظيفة ثابتة، والأولاد ما يزالون في بداية الدرب.

ومن وراء المكتب الفخم، حدثه المعاون وهو يقلب ملفات الأوراق بين يديه، ثم قال:

– نظراً لخبرتك الطويلة في تسجيل الصادر والوارد في ديوان الأوراق، فقد اقترحت على المدير العام نقلك إلى المستودع، لتسجيل الصادر والوارد، بدلاً من محمد رجب.

ذهل، ثم حاول النطق، ولكن المعاون تابع حديثه، فقال:

– أعرف جيداً أنك لا تريد ترك عملك، فقد ألفته طوال عشرين سنة، ولكن لا تنس أنك مقبل بعد سنتين، أو ثلاث، على التقاعد.

وصمت برهة، ثم أضاف:

– بصراحة، كان المدير يريد نقلك إلى قسم المحفوظات، تحت، في القبو، وأنا متأكد من أنه سيقدم على نقلك، إذا لم تقبل بالانتقال إلى المستودع.

ومرة أخرى حاول النطق، ولكنه قاطعه قائلاً:

– لن أسمع منك جواباً الآن، سأترك لك فرصة للتفكير، أراك غداً.

أدرك أن اللقاء قد انتهى، فنهض، وخرج، وهو يحيي بأدب، وتواضع، أغلق الباب وراءه بهدوء، ثم أخذ يهبط على الدرج، ثقيل الخطا.

محمد رجب، تعرفه جيداً، وتذكر فضيحة الحريق المفتعل، في المستودع، وتشكيل لجنة أولية للتحقيق، وتقدير الخسائر، المدير العام كان رئيس اللجنة، حريق صغير، أخمد في دقائق، ولكن الخسائر قدرت بنصف مليون، على الرغم من أن كلَّ ما في المستودع لا يمكن أن يقدرَّ بمليون، والسبب كان كما قدرت اللجنة شرارة كهربائية، وحين جاءت لجنة وزارة مختصة للتحقيق، صادقت على كل النتائج التي وصلت إليها لجنة التحقيق الأولي، واليوم يريدون نقل محمد رجب، لإنهاء الموضوع القديم، ولتنفيذ خطة جديدة.

ما الذي استفاده محمد رجب؟ اشترى لأولاده ثياباً جديدة، وزوّد بيته بعصّارة ومروحة وسجادة.

وأنت يريدون أن يصنعوا منك أميناً جديداً على سرقاتهم، مستفيدين من طيبتك وأمانتك، ومن قرب إحالتك إلى التقاعد.

من قبل، منذ أربع سنوات، عرض عليك الحارس الليلي في المديرية مثل هذا المشروع، وقد رفضت، لقد خشيت، ثم ندمت، ثم اقتنعت بأسباب رفضك.

واليوم، الأمر مختلف، كل شيء اليوم مضمون، أنت تتفق مع المدير، ومع معاون المدير، وهما يحسبان المحاذير بدقة، ولن يتخلى أحد عنك، أياً كانت النتائج.

ودخل ديوان الأوراق، فاستقبله زملاؤه بالتساؤل، فقابلهم بالوجوم، وأظهر تذمراً، وادّعى أنَّ المعاون عاتبه لتقصيره في العمل، بسبب شكوى رفعت ضده، ولكنه شعر أن زملاءه لم يصدِّقوه.

ورجع إلى البيت، مهموماً، يفكر.

ووقف أمام المرآة، يشد عينيه، يفتحهما بقوة، ويلمس فمه، وأذنيه، ويمسح على ما بقي من شعره، ويذكر الحلم، وعرض معاون المدير.

* * *

حبّات العنب

لولا اصطفاق الباب، لما انتبه إلى فخامة السيارة المتألقة، التي وقفت أمامه، عند حافة الرصيف، ونزل منها ذلك الرجل الجهم الطويل، بنظّارته القاتمة، وبطنه الممتدة إلى أمام.

كان مشغولاً بعنقود عنب ذهبي كالعسل، يلتقط منه، بمقصٍّ صغير في يده، بعض الحبات المتطرفة، التي لا تنال رضاه، مقلّداً في ذلك أباه، وهو مزهوٌّ كلَّ الزهو بالعنقود، الذي يشتهي أن يتناوله، ولكنه لا يفعل.

وما إن أعاد النظر إلى السيارة، حتى قفز فوق صندوق العنب، والميزان، وأسرع إليها، وعنقود العنب في يده:

– **أهلاً سامح .**

– **أهلاً أحمد.**

– **ماذا تفعل هنا؟**

– **مع أبي، وأنت؟**

– **أنا هناك، أبيع العنب.**

والتفت يشير إلى صندوق عنب، ومقعد خشبي، وميزان، تجثم جميعها في ظل الجدار، على طرف الرصيف، ثم التفت إلى سامح، وهو يمدّ له يده بعنقود العنب:

– **تفضّل.**

والتقط حبة عنب كبيرة، ملألئة كالشمس، وقدمها لسامح، فتناولها منه، ولم يلبث أن أخذ يلتقط حبات العنب، حبة حبة، شهية سائغة، وأحمد يشاركه فيها.

ثم سأله، وهو يتأمل السيارة:

– **هذه سيارتكم؟!**

– **نعم، سيارة أبي، وعندما أكبر سيشتري لي أجمل منها.**

– **إلى أين كنتم ذاهبين؟**

– **إلى البيت، ولكن أبي سيمر هناك ببعض شركائه في المشروع، انظر، إنه هناك.**

وأشار بيده خارج النافذة، والتفت أحمد، كان في البعيد، وراء الساحة التي ملأها الباعة، وخلف الأزقة القديمة، ذات البيوت المتداعية، أبنية أخرى جديدة، تنهض عالية.

ثم أضاف سامح:

– **أبي يعمِّر هناك بناية كبيرة، وقد عمَّر اثنتين من قبل.**

– **ولماذا لم تدخلوا بالسيارة إلى هناك؟**

– **لقد دخلنا مرة، ولكن الأزقة ضيقة، وترابية، وكثير من الأولاد جروا خلفنا، وبدؤوا يرمون السيارة بالأحجار والتراب.**

ثم سأله فجأة:

– هل بيتكم هنا؟

فأجابه أحمد:

– نعم.

ثم تحدثا عن الامتحان، والنجاح، والعطلة الصيفية، وترقب افتتاح العام الدراسي الجديد، وأدرك أحمد أنَّ سامحاً قد أمضى عطلة ليست كالعطلة التي أمضاها هو طوال الصيف، وراء صندوق العنب، تارة، وصندوق البطيخ أخرى، ومرات مع أبيه، يدفعان معاً عربة يد محملة بالخضر، يطوفان بها الأزقة المغبرة القذرة، تحت شمس تموز الحارقة، ليعودا في المساء منهكين متعبين، وقد امتلأ كيس أبيه بقطع نقدية، يحسبها كثيرة، وغالباً ما يعودان وقد احتفظا لإخوته من أجل العشاء بما لم ينل إعجاب المشترين من البطيخ الصغير، أو العنب المحطم.

وتمنى، وهو يتكئ بمرفقه على حافة النافذة لو أنَّ سامحاً يدعوه إلى مشاركته في القعود معه داخل السيارة، لينعم، ولو قليلاً، برقة ذلك المقعد الجلدي الأنيق الناعم.

ويلتفت إليه سامح، فيدعوه:

– هيا، اطلع.

ويلتفت أحمد من أمام السيارة، وينفتح الباب حين يبلغه، وإذا هو وراء المقود، وبلمسة من يده، تنساب هادئة، وتمضي كالنسيم الرقيق، تنثال عبر الشوارع والطرقات كالشلال، وبانتباهة منه إلى سيارة قادمة، تميل إلى اليمين ميلاً ناعماً، وبالتفاتة لطيفة إلى شارع فرعي، تنعطف فيه، برقة وليونة، وبرغبة في سرعة أكبر، تنطق انطلاقاً، كالومض اللماح، والمقعد من تحته ناعم دافئ وثير.

ولكم بكى حتى تفجرت حدقتاه، لأجل أن يصعد إلى جانب أخته في تلك السيارة الصغيرة، يوم زفافها، وهي تصعد فيها بثوبها الأبيض، قبل عامين، ولكم تمنى لو أنه لم ينزل من تلك السيارة التي حملت أباه من المستشفى إلى البيت، وقد دهش لأبيه كيف شكا من أن السيارة قد أرهقته، على الرغم من أنه تمدد في مقعدها الخلفي بارتياح كبير.

وهاهي ذي سيارة أفخم وأروع، تنقاد له وثيرة حالمة، وبلمسة من يده تذهب به حيث يشاء، فهاهو ذا بيته، وهذه أمه، ما أشد جزعها وهي تراه وراء المقود، ولكن ما أشد اطمئنانها إليه، وهي تقعد إلى جانبه مع أبيه، أما إخوته، أمجد وبسام وعمر وآمنة وملك وهناء، فيملؤون المقعد الخلفي، ضاجين فرحين، وهو ينطلق بهم سريعاً سريعاً، وهؤلاء هم الجيران تغص بهم السيارة، وتزدحم، فيضاعف سرعته، وينطلق بهم، والشارع يمتد أمامه، ويمتد، وينعطف ويتفرع، ويداه تتحكمان بالمقود، والمدى متألق أمامه بهيج، وهو يغوص في المقعد الجلدي الوثير، ولكن جده

في المقعد الخلفي وراءه، يخشى مثل هذه السرعة، ويضع يده على كتفه، ويمسك به في قوة وعنف.

والتفت أحمد إلى وراء، فطالعه وجه صارم الملامح، بنظارة سوداء، وأحس باليد على كتفه ثقيلة، وثمة صوت أجش عريض كأنه يطرده، قائلاً:

– ماذا تفعل هنا؟!

وجاء جواب سامح منقذاً:

– أحمد، زميلي في المدرسة.

وابتعد عن السيارة، ليقف أمامها مذهولاً، مفاجأً بفخامتها وتألقها، كأنه يراها أول مرة، ثم انتبه إلى بابها وقد اصطفق في قوة، وهدر محرِّكها، ثم انطلقت عنيفة، لتبتعد، مثيرة غبار الشارع الأكدر، وسامح يمدُّ له يده من نافذتها مودعاً، وهي تبتعد.

ورجع أحمد إلى مقعده، ثقيل الخطا، وسط ضجيج الشارع، وصخب الباعة، ومناداتهم، وعنقود العنب ما يزال في يده، لم تنقص منه سوى بضع حبات، كأن لم يأكل منه شيئاً.

وحين هم بالقعود فوق كرسيه الخشبي الصغير، ومضت في صلبه وخزة ألم حاد، فذكر كيس الخيار الكبير الذي حمله بالأمس وحده، وضغط فوق موضع الألم، وقعد، وهو يتأمل عناقيد العنب الذهبية، التي امتلأ بها الصندوق الذي أمامه، وفكر فيما ستحقق له شيئاً من الربح، قبل أن تتحطّم بفعل الحر.

وتنبّه إلى أنَّ الظلَّ قد أخذ ينحسر عن تلك العناقيد، وأنَّ شمس تموز اللاهبة تنصبُّ فوقها، وأن عليه نقل موضعه من الرصيف، إلى مكان آخر.

* * *

في وقت مبكر

شهر كامل، وعشرة أيام، شهر طويل، وعشرة أيام أطول، مضت وهو يصبِّر نفسه، في كل يوم يلقي قطعاً نقدية صغيرة في حصّالته الفخارية، لا ينفق شيئاً، ولا يشتري شيئاً، إلا ما كان ضرورياً، حتى يوفِّر المبلغ الأكبر، وفي كل يوم يلقي فيها قطعة، يرجّها، وينصت إلى صوتها، ويحس بيديه ثقلها، وقد أخذت يوماً بعد يوم تزداد وزناً، فيحلم بها وقد امتلأت.

ومع كل يوم، كان حلمه يكبر، ويزداد قرباً، حتى ليحسبه قد تحقق. وكان أوّل ما حلم به هو دراجة، كان يتصورها في البدء مجرد دراجة، لكن يوماً بعد يوم، أخذت ملامحها تتضح، وتفاصيلها تتحدد، فقد أخذ يتصور عجلتيها، ومقودها، وهيكلها، ومقعدها، ثم أخذ يتخيّل إطاري العجلتين، ويتخيّل ما على المقود من مصباح، ومزمار، ومرآتين جانبيتين، ثم تطورت الصورة، فهاهو ذا يرى المولّد الصغير المعلق على العجلة الخلفية، والمصباح الأحمر، والريش الملون بالأخضر والأصفر، في مقودها، وهو ينطلق بها إلى حيث يشاء، والناس يسيرون على الرصيفين وهو يستخدم المزمار، ويضيء المصباح، فيفرش الطريق بالنور أمامه، وأكثر ما كانت مثل هذه الصورة تراوده في المساء، حين يأوي إلى فراشه، فيعيشها في مخيلته سعيداً، قبل أن يغفي، ثم يستسلم للنوم، وهو يحلم بها، وما يلبث أن يحسّ بها في الصباح الباكر، في أواخر نومه، قبيل أن يستيقظ، حتى ليشعر بانسيابها الرخيم الهادئ، وهي تنطلق به في كل الأرجاء، ويستيقظ، فيسرع إلى حصالته، يتحسس ثقلها، وينصت إلى صوتها.

وجاء اليوم الذي قرر فيه كسرها، فقد ازدادت ثقلاً، وإن كانت في الحقيقة لم تمتلئ، فلم يبق له من الصبر شيء، وبضربة خفيفة من المطرقة، انفلقت منشطرة إلى نصفين، واندلقت منها النقود، متدفقة، وتدحرجت منها بعض القطع النقدية، وتفرقت في أرض الغرفة، تحت الأثاث، فلاحق إحداها وهي تفر من يديه، راكضة، لتستقر تحت السرير، بعد دورات صغيرة، رسمتها على الأرض المغبرة.

عاد إلى الحصالة، والنقود منثالة منها، فأخذ يجمعها ويضمها بين يديه، وأخذت صورة الدراجة تومض في ذهنه، لكنه ما عاد يتاح له أن يتأملها، فما هي بالواضحة، والمال بين يديه يشغله عنها، وعليه أن يعده، ها هو ذا يضطرب، ويخطئ في العد، ويعيده مرة بعد مرة، ويوزع النقود على فئات، ويفكر في نزوله إلى السوق، مع أبيه، لشراء الدراجة.

جمع النقود في قطعة قماش صغيرة، لفها بها، ثم رجا أمه أن تعطيه شيئاً مما يتوقع أنها تدّخره، ليستكمل ثمن الدراجة، ولم تبخل عليه أمه بما تستطيع أن تقدمه له، ولكن كان عليه أن ينتظر حتى يجيء والده إلى البيت، مع آخر النهار.

ولم يدرِ في المساء كيف التهم بعض اللقيمات على عجل، مع أبيه وأمه وإخوته الصغار، مكتفياً بكسرة خبز، وبعض حبات من الزيتون، حتى كأس الشاي لم يدرِ كيف احتساها، وهو

يتطلع إلى أبيه، منتظراً أن ينتهي مثله من العشاء سريعاً، متلهفاً، ليعلن له عن رغبته، وهو يفكر بموافقته، أو رفضه، ويكف يمكنه أن يقنعه إن لم يوافق، وماذا سيفعل إذا منعه؟!

وحانت اللحظة المناسبة التي عليه فيها أن يتحدث، فها قد انتهى أبوه من ارتشاف كأس الشاي الأخيرة، فشرح له رغبته باضطراب، وساعدته أمه، ثم عرض عليه الذي ادخره.

وأنصت إلى جواب أبيه، بضيق وصمت، ولكن بتصديق كبير. ثم رجع إلى غرفته حسيراً مكتئباً صامتاً، فتح كتابه، وقعد يقرأ فيه، وصرة النقود أمامه، على الطاولة. ومضى يتصوّر أباه، إنه مثل كثير من الآباء، لكن ليس مثل بعضهم، أبوه يحبه كثيراً، ولا يمنعه من شراء دراجة، ولا يريد منعه، بل يتمناها له، ويحلم بأن يراه وهو يقودها، لكنه مثل أولئك الآباء الكثيرين الذين لا يستطيعون أن يوفِّروا لأبنائهم كلَّ ما يشتهونه لهم.

وشعر بحاجته إلى أشياء أخرى كثيرة، أهمّ من الدراجة، وأكثر منها ضرورة، وأحس أنه مثل كثير من الأولاد، وليس مثل بعضهم، فهو لا يستطيع أن يلهو ويلعب، لأن عليه أن يدرس ويجتهد، بل ربما كان عليه، في وقت مبكر، أن يعمل، في أي شيء، يساعد والده.

نظر إلى صرة النقود، فتأملها لحظة، وتردد، ثم نهض، حاملاً صرة النقود، وخرج من غرفته، مصمماً على فعل شيء، وحين التقى بأمه وهي ترفو بعض الثياب، سألها عن أبيه، فأخبرته بأنه خرج، فناولها صرة النقود، وقال لها:

– **أعطيها لأبي.. حين يعود.**

ثم رجع إلى غرفته، وأقفل بابها عليه، وقد احتفظ لنفسه من الصرة، بقطعة واحدة، فقط، قرر أن يشتري بها حصالة جديدة، ويدخر فيها ثانية قطع النقود، وأن يحلم من جديد، ولكن بشيء آخر، غير الدراجة.

المعاون الصّغير

كان ذلك قبل عشر سنوات؛ أو أكثر.

وكان في ذلك الوقت، قد تمَّ تعييني مدرِّساً في بلدة صغيرة، لا تبعد كثيراً عن مدينتي، وقد آثرت أن أصعد إليها كل يوم في الصباح، وأعود في المساء، ولم أشأ أن أتخذ فيها غرفة، أقيم فيها، والذي شجعني على ذلك توفُّرُ وسائط النقل إليها.

وكانت المدرسة التي عُيِّنتُ فيها، تقع على الطريق الرئيسة في البلدة، فكنت أنزل من السيارة إلى المدرسة مباشرة، ولا أتجشم مشقة السير، وفي ساعة الانصراف، كنت غالباً ما أخرج من المدرسة، فأجد سيارة أمام الباب، تنتظر من سيخرج من المدرسين.

ولكن، في بعض الأيام، كان يكثر النازلون إلى المدينة، من أهل البلد، فيكون التزاحم على السيارات، ولهذا كنا، نحن المدرسين القادمين من المدينة، نضطر إلى الانتظار، حتى نوفر لأنفسنا سيارة، ننزل بها، وكان ثمة صبي صغير، يساعدنا على ذلك، لقاء أجر ضئيل نعطيه إياه.

وكان هذا الصبي، وهو في حوالي الثانية عشرة، أسمر نحيلاً، ممشوق القامة، وقد عرفت أنَّ اسمه حامد، وكان ما إن يرى سيارة قادمة إلى المدينة، حتى يقفز إليها، فيحط على الواقية الخلفية، ويدق على سطحها دقات يفهمها السائق، فإذا السيارة قد حجزت لنا.

وكان هذا هو عمل الصبي، إذ لم يكن في تلك البلدة مركز لانطلاق السيارات، وإنما كان هناك دكان صغيرة، تقع على الطريق الرئيسة، غير بعيدة من المدرسة، اتُّخِذتْ مكتباً تمرّ به السيارات، حيث يقعد أحد المشرفين على تنظيم حركة السيارات، ويحفظ لكل سيارة دورها.

وكان ذلك الصبي يصعد في السيارة، بعد أن ينزل منها الركاب القادمون من المدينة، فيقف في بابها، وهو نصف مفتوح، وتنطلق به، عبر شوارع البلدة، لتجمع الركاب، وهو يلتقطهم من هنا وهناك، ويساعدهم على حمل أشيائهم، وتظل السيارة تطوف الشوارع والطرقات، على قلتها، حتى يوفر لها الركاب، وعندئذ تؤوب إلى المكتب، فيأخذ الصبي من السائق أجرته، وتمضي السيارة إلى المدينة، على حين يمضي هو ينتظر سيارة أخرى.

ومرة سألته:

– **لماذا لا تذهب إلى المدرسة؟!**

فأجابني، وهو واقف في باب السيارة، يبحث عن الركاب:

– **تركتها من الصف الثالث.**

– **ألا تحب المدرسة؟!**

– **أحبها، يا أستاذ.**

– **ولماذا تركتها إذن ؟!**

ومرت لحظة صمت، لم يجب فيها، فإذا السائق ينبري للجواب، بدلاً منه، فيقول بخشونة:

– **مات أبوه، وترك له خمسة إخوة، هو أكبرهم.**

وثارت في نفسي أسئلة أخرى، ولكني كتمتها.

*

ثم حلت عطلة العيد، فشعرت فيها بشيء من الارتياح، ولكنها لم تلبث أن انتهت كالحلم، ولم أحقق فيها شيئاً مما تمنيت، ووجدتني، في أول يوم بعد انتهاء العطلة، في السيارة، منطلقاً إلى تلك البلدة، وأنا ملتف بمعطف ثقيل، فقد هجم الشتاء باكراً.

وما إن غادرت السيارة حدود المدينة، حتى تبدت السماء جهمة غائمة، وكانت ثمة ريح شديدة، تصفق السيارة المندفعة، وقد ثار الغبار، فتراءى المدى مغطى بشحوب أكدر.

وعلى الرغم من لقائي بزملائي، المدرسين، وما كان في ترحيبهم من بهجةٍ ومرح، فقد كنت أشعر بضيق واختناق، لا أجد لهما مسوغاً، وفي الحصة الأولى وجدت الطلاب لم يؤدُّوا الواجبات التي طُلب منهم أن يؤدُّوها في العطلة.

وما إن قُرع جرس الانصراف، من الحصة الأخيرة، بعد صبر نافد، حتى وجدتني أسبق زملائي المدرسين في الخروج من الصف، والانطلاق إلى باب المدرسة، وكانت ثمة ريح عاصفة، تثير الغبار، وقد عمَّت السماء قتامة كئيبة، وثمة قطرات من المطر، تتساقط على الأرض.

وقفت قليلاً أمام باب المدرسة، أنتظر سيارة قادمة، ولكني خشيت أن يطول انتظاري، فاتجهت إلى مكتب تنظيم انطلاق السيارات، وقد أخذت قطرات المطر تتالى في خيوط رفيعة متصلة، تنسج غلالة كثيفة، يبدو كل شيء من ورائها كئيباً، وقبل أن أبلغ المكتب، لمحت أمامه ازدحاماً، وكانت الريح تعصف، والسماء سوداء مضببة، وقد أخذ المطر ينهل غزيراً، مصحوباً برعد قاصف، ومن بعيد، سمعت صراخ سيارة إسعاف، ما ينفك عويلها يقترب حاداً مفجعاً، فحثثت الخطا، وحين التقيت بأول رجل، سألته:

– **ماذا حدث؟!**

فأجابني:

– **حامد، راح تحت دواليب السيارة.**

*

وبعد يومين أو ثلاثة، قررت أن أتجنب مشقة الانتقال اليومي، إلى البلدة، في جو شتوي بارد، ومضيت أسأل عن غرفة مفروشة، ولم ألبث أن عثرت على واحدة قريبة من المدرسة.

وفي غرفتي الصغيرة، شعرت بالراحة والطمأنينة، فكنت أعد كل شيء بنفسي، ويبقى لدي قيل من الوقت، كنت أمضيه بالمطالعة، وأحياناً كنت أزور بعض من تعرفت إليهم في البلدة.

وكان شتاءً حاداً، فقد تساقط الثلج مرتين، وقطع الطريق إلى المدينة، وأكثر من مرة استضفت بعض زملائي من المدرسين، القادمين من المدينة، وباتوا عندي، ولم يلبث أحدهم أن انضم إلي، ومضى يشاركني غرفتي، وقد سعدت به، وجعلنا نقتسم العمل في الغرفة، بكل غبطة.

* * *

ثم أقبل شهر آذار، فقررت أنا وزميلي ترك الغرفة، والعودة إلى الانتقال اليومي، بين المدينة والبلدة، فقد مضى الشتاء، وأطل الربيع، واخضوضرت السهول، ودفئ الجو، وأصبحت الرحلة اليومية ممتعة.

وحزم كل منا حقيبته، ومضينا إلى مكتب تنظيم انطلاق السيارات، وفي المكتب، تلقانا صبي دون العاشرة، يرتدي قميصاً، وبنطالاً، ملوثين بالشحم والزيت، كان مرحاً، رشيقاً، ما إن رآنا حتى رحب بنا، وقال:

– أهلاً بالأساتذة.

ثم حمل حقائبنا، وقذف بها في صندوق السيارة، وحين انطلقت لتجوب شوارع البلدة، تلتقط الركاب، قفز إليها، ووقف في بابها، وهو نصف مفتوح، وأخذ ينادي الركاب، ويحمل حقائبهم.

وتحرك في نفسي شيء ما، فسألته عن اسمه، فأجاب:

– عبدالحميد يا أستاذ، ويقولون لي حميد.

وفكرت في أسئلة أخرى، ولكني أحجمت، حتى إذا غادرت السيارة البلدة، وانطلقت نحو المدينة، لم أتردد في سؤال السائق، فقلت له:

– يبدو ذلك الولد جديداً على العمل؟

– قُتل أخوه في الشتاء الماضي تحت دواليب السيارة.

وصمت هنيهة، ثم تابع من غير أن أسأله:

– عنده أربعة إخوة، وعليه أن يعمل من أجلهم، كان الأب سائقاً، وفي حادثٍ قطعت يده، فعمل معاوناً، مثل ابنه الآن، ولكنه مات فجأة منذ سنتين، فعمل ابنه الأول محله، وهذا الثاني.

– وسيارة الأب؟! ألا يكفيهم دخلها؟!

فنظر إليَّ السائق، ثم قال ضاحكاً، وهو يتساءل:

– وهل كانت السيارة ملكاً له؟!

ثم تابع بعد صمت قصير:

– كلنا نعمل هنا بالأجرة، على هذا الخط أكثر من عشرين سيارة، تعمل من الفجر إلى العشاء، وكلها ملك لرجل واحد.

ثم قال بلهجة أخرى:

– **ولكنه مصاب بالسكري، وليس عنده أولاد.**

ثم انتبهت إلى السائق، وكنا قد وصلنا إلى المدينة، وهو يسألني:

– **بماذا تفكر؟ أستاذ!**

*

وها قد مضت على انتقالي من تلك البلدة، سنوات عشر، أو أكثر، لم ألتق فيها بحميد، ولكني ما أزال أذكره، وإن كنت أشك في إمكان تعرفي إليه إذا لقيته، فلا بد أن يكون قد لحق بملامحه تغيُّرٌ كبير.

ولكني في الحقيقة، ما أزال أتمنى لو ألقاه، وأعرف ماذا حلَّ به.

على أنَّ الذي ما أزال أذكره، وأعرفه حق المعرفة، ولا يمكنني أن أنساه أبداً، هو أخوه حامد.

وإلى اليوم ما أزال أسأل الطلاب أن يكتبوا في موضوع التعبير عن طالب فقير، يعمل بعد الانصراف من المدرسة، ليساعد أهله، وربما حكيت لبعضهم عن حامد.

وما يؤلمني، إلى اليوم، ألاّ يستطيع أكثر الطلاب الحديث عن ذلك الفقير، على الرغم من أنَّ أكثرهم في الحقيقة مثله.

ولا يبقى لي غير تكرار الموضوع نفسه.

*   *   *

ثمن صحن الفول

- ١ -

(حميدو)

جلبة مبهمة تضج تحت نافذته، وصوت شتائم، تعلو على كلِّ ما تمتزج به من مناداة الباعة، وضوضاء العتالين، وضجيج عجلات العربات الخشبية، المتدحرجة على أرض السوق المرصوفة بحجارة، حتى لتطغى على هدير محركات الناقلات الصغيرة، فينهض من فراشه الممدود على الأرض، ويتّجه إلى النافذة العارية، والشمس تقتحمها حادة ساطعة، فيطل منها، وهو يفرك عينيه، وإذا معلمه الحاج رشيد ببطنه المتكورة الممتدة إلى أمام كشرفة، يصفع "حسكور"، وقد أمسك به من عنقه، بقبضة يده اليسرى الغليظة، وشتائمه تتدحرج مثل كرات الحجر، وحين رمى "حسكور" تفاحة كانت في يده، تركه الحاج رشيد، والتقط التفاحة، مسحها بقميصه، ثم أودعها في واحد من تلك الصناديق المليئة بالتفاح، وفي الزحام تسرب "حسكور"، وغاب عن الأعين.

ألف صفعة أقوى من هذه لن تثني "حسكور" عن عادته، بل عمله، إنه يعرفه جيداً، يتسلّل وسط الزحام ليلتقط تفاحة من هنا، أو قرصَ بطيخ من هناك، ولا يغفل عن بقية سيكارة، ملقاة على الأرض، فيلتقطها بخفة، من بين الأرجل، وبطرف إصبعيه يرشقها بين شفتيه، ويمتصُّ منها الدخان، بقوة وعمق، ثم ينفثه من أنفه على دفعات، ويترك آخر سحاباته تتصاعد من فمه.

ورجع إلى فراشه، وقد أحسّ بلمسة الصباح الباردة، فتلذذ بما في الفراش من دفء، ثم انقلب إلى الطرف الآخر، جاعلاً وجهه إلى الجدار، وضغط جفنيه بقوة، وهو يتلقى نور الشمس المنعكس، ورفع الغطاء إلى فوق رأسه، وقد ثنى ساعده فوق عينيه، ومضى يسترجع النوم، محاولاً الإغفاء، وشيئاً فشيئاً بدأت الأصوات تخفت، وأخذ النور يغيم.

ولكنَّ معلمه الحاج رشيد ما يزال يلعن ويشتم، والصناديق تمتدُّ أمام الدكان حتى منتصف الطريق، وترتفع إلى أعلى، تحت نافذته، طبقات بعضها فوق بعض، حتى تبلغ حافة النافذة، تَمَلَّى الصندوق الأول في الأعلى، وهو منه قريب، قريب جداً، ولو مد إليه يده لطاله، بل إنه ليمدها، وهذه تفاحة في متناول يده، وهمَّ بها، ولكنه لوى أصابعه، وبِجَمْعِ يده الصغيرة دفع الصندوق فهوى، وتدفقت منه التفاحات، وتتالى سقوط الصناديق، والتفاح منها ينهمر، وشرعت كل الصناديق تنقلب وتهوي، والتفاح منها يتدفق، وينساب متدحرجاً في الطريق، حتى ملأه، وأخذ يكتسح كلَّ ما فيه، ثم غطّاه إلى حافة الأسطحة، بل أخذ يندفع ويسير ويرتفع ويطغى حتى غمر السوق، وغطى الأسطحة، وامتلأ المدى أمامه بالتفاح، وليس ثمة بعد غير بطحاء ممتدة ليست هي بأرض ولا تفاح، ونظر إلى السماء، كان ثمة حمرة شفقية متوردة، وشمس ليست هي بالشمس، أحس بها منه قريبة، فمد إليها أنملته، وحركها بها، وغير مجراها، فدنت من الأرض،

وإلى ورائه كان ثمة شجرة، لم يتبين أغصانها، ولم يدرك ألوانها، كأنها مجرد سواد، ولكنها قائمة، وإلى جانبها صبية هيفاء، رشيقة دقيقة الخصر، تتهادى في ثوب أبيض شفاف، وتدنو منه، يكاد يعرفها، ولعله رآها من قبل، تَمَلَّى عينيها، فهمست: "**إني ذاهبة إلى المدرسة**"، وأحس أنها دونه عمراً، وما أشبهها بأمه.

وجاءه صوت أمه قاسياً، وقد صَرَّ الباب بحدة حين فتحته، وأطلت منه، وهي تقول:

– **يا الله، حميدو، أبوك بانتظارك، لا تتأخر.**

ورفع الغطاء، ونهض منتفضاً، ومضى إلى النافذة، والشمس تقتحمها حادة ساطعة، ففرك عينيه، ومضى يحدق في السوق، فإذا هو كشأنه كل يوم، صاخب في حركة وضوضاء، وأحسّ بنسمة الصباح تلسعه، وبأشعة الشمس تدفئه، فسرى في جسمه خدر لذيذ، وسرح ببصره وراء الأسطحة الترابية المغبرة القذرة، الممتدة أمام نافذته، وعلى سطح بعيد امرأة ضخمة الجسم بدينة، تنشر ثياباً ملونة، تبدو حتى بعد الغسيل، قذرة، وعلى سطح قريب زوجا حمام يلتقطان ما على السطح من فتات، وعلى السطح الذي دونه، ما تزال هي هي تلك البقايا من الكراسي المحطمة والثياب البالية، وصفائح التنك الفارغة الصدئة، وصناديق الخشب المتكسرة، متراكمة متبعثرة، كئيبة قاتمة، وعلى أسلاك الكهرباء تتعلق خرق عتيقة، تحركها النسمات، فتترجح مغبرة قذرة، ولا تسقط، وتحت، في السوق، أبو سعيد بائع "السحلب" يقف وراء قدره الغائصة في عربة خشبية قذرة، ما ينفك ينادي بصوته الطويل الممطوط، ويداه مشغولتان، تكاد حركتهما لا تفتر، وهو يغرف من السائل الأبيض، ويصبه في صحون، يتخاطفها من حوله العتالون، والصبية الماضون إلى مدارسهم.

هل يترك المدرسة كما تريد أمه؟ أم يبقى فيها كما يريد أبوه؟! الحقُّ أنه لا يحبّ المدرسة، ولكنه يرتاح فيها أكثر مما يرتاح في السوق، ولئن كان يجد في السوق، مع أبيه، بين العتالين والباعة، تسليةً كبيرة، إنه يكاد يختنق في جو المدرسة، بسورها ونظامها وواجباتها. ولكنَّ الذي لا يفهمه هو رغبة أمه في أن يترك المدرسة إنه يحبها أكثر من حبه لأبيه، أو لعله يرتاح إلى نظرة عينيها المفعمتين بالحياة، على حين يكتئب للغضون في وجه أبيه، وينزعج من دخان تبغه الذي يملأ به البيت، ويضيق بسعاله الذي يستيقظ في الليل على فحيحه مذعوراً، وهو الذي إن سأله شيئاً شتمه وطرده، على حين لا تضنّ عليه أمه بشيء، وإنه لواثق بأنها تحتفظ معها دائماً بشيء من المال، على حين أن أباه يخرج كل صباح، وليس في جيبه شيء، حتى إن صوته الأبح الخافت ليغيب ويكاد لا يبين، حين يحدثها، على حين ينضح صوتها بالضجة والصخب، ويبدو أنها قد اعتادت ذلك، أو هو فيها بالأصل عادة، فهي لا تكاد تتكلم إلا مندفعة بصوت عال، ولكن يبقى لها سر خاص، تستطيع به أن تسيطر على أبيه، بل على معلمه الحاج رشيد، فهو لا ينسى ذلك المساء الذي زارهم فيه، وتخاصم مع أبيه، لم يسمع كل ما قيل، ولكن كلمات

الحاج رشيد، ما تزال في ذهنه، وما تزال بعض معانيها عنده غامضة، فقد قال له: "**لا تنس يا أبو أحمد، صحيح أنك أكبر عتال في سوق الهال، ولكن رزقك في يدي، وأنا الذي زوجتك، لولاي ما كنت بني آدم**". وقد أدرك أنّ ثورة الحاج رشيد ما كانت لتهدأ لولا تدخل أمه، فبكلمة منها أنهت الخصام، وما يزال يعجب من أبيه، كيف انقلب في ذلك الخصام، بعد تدخل أمه، إلى تمثال صامت، لا ينطق بكلمة، مع أنه هو الذي بدأ الخصام بحدة وعناد. وهاهو ذا الحاج رشيد يبادر يوم أمس إلى نصيحته بترك المدرسة، والاستمرار في العمل عنده، مع أبيه، وقد وعده أن يحتفظ له بأجرته نفسها في الشتاء، مع أنّ العمل في موسمه أقل منه في الصيف، فهل يذهب إلى المدرسة، أم يكفيه ما عانى منها في العام الماضي، وكيف سيعود مرة ثانية إلى الصف الخامس، مع الراسبين؟!

وأحس ثانية بنسمة الصباح تلسعه فانسحب من النافذة، ومضى إلى ركن في الغرفة، فخلع قميصه، ومن على مسمار مثبت في الحائط، التقط قميصاً آخر، وقبل أن يرتديه، نظر إلى طوقه، كان مسوداً كالزفت، نفضه مرتين، ثم ارتداه وزرَّه، ومضى يهرش رأسه، وهو يقذف الفراش بقدمه، باحثاً تحتها عن نعله، ثم التقط من الزاوية حبلاً ملوياً ملقى على الأرض، ورماه على كتفه، وأمام الباب الخشبي المخلع، وقف قليلاً، ومد يده في شق قميصه، ونظر إلى ما استطاع أن يعثر عليه من نقود، كانت لا تزيد على ثمن صحن من السحلب، إذن ليكن صحن الفول للغداء، لا بُدَّ أن يحصّل ثمنه إلى الظهر، ولكن لماذا صحن الفول أغلى من صحن السحلب؟ هل من أجل الزيت والبصل؟ غير معقول؟! وربما لأن "أبو قاسم" عنده دكان يبيع فها الفول، على حين أن "أبو سعيد" يبيع السحلب في عربة يد خشبية، ولو أنه افتتح دكاناً، لزاد في ثمن صحن السحلب، تماماً مثل العتالين أصحاب الناقلات الصغيرة، فهم لقاء نقل صندوق صغير، يأخذون من الأجرة ضعف ما يأخذه هو لقاء حمل صندوق كبير، لماذا لا يشتري له أبوه إذن عربة يد، على الأقل، ليحمل عليها الصناديق، ويدفعها، أليس هذا أسهل من أن يحملها على كتفه، حين يكبر سيشتري ناقلة صغيرة، سيتعلم قيادتها، ولن يحمل شيئاً على ظهره، سيعتني بها، سيغسلها كل مساء، ليلتقي بها في الصباح نظيفة متألقة، لن يحمل صناديق قذرة، ولكن لماذا لا يصنعون صناديق نظيفة، لا شك أنَّ الصناديق في البدء كانت نظيفة، ولكن الشوارع والأرصفة هي التي تُلْحِقُ بها الغبار والقذر، لماذا لا تمد إذن شوارع طويلة عريضة مستقيمة نظيفة، تشاد على طولها حوانيت للفواكه والخضر، واسعة كبيرة، تمتد أمامها أرصفة عريضة، تقف عليها الناقلات، ولا حمال يرفع شيئاً على ظهره، فثمة مدارج تنزلق عليها الصناديق إلى الناقلات، وكلها نظيفة أنيقة جديدة، وأجور جميع الناقلات واحدة. المهم أن تعمل كل الناقلات من غير منافسة، بأجور موحدة، ويعود الحمالون في المساء إلى بيوتهم في ناقلاتهم، سعداء مسرورين، وإذا أراد أحدهم أن يذهب في سهرة مع أسرته، ذهب في الناقلة،

ويمكنه في الصباح أن يوصل أولاده إلى مدارسهم، إذا كانت بعيدة، ولكن هل يذهب هو إلى المدرسة أو يتركها؟!

ومرة ثانية جاءه صوت أمه حاداً قاسياً:

– **حميدو لا تتأخر.**

– ٢ –

(الحاج رشيد)

بين مدخل المخزن وعمقه كان يتنقل، قلقاً، لم يشغل بالمشترين، ولا بالأسعار، بعد حادثة "حسكور"، لم يلق بالاً إلى الحمالين والقائمين على الميزان، ولا إلى حركة المحاسبين، إنه العمل الذي يجري عادة كل صباح، لم ينل منه اهتماماً، عدا سرقة التفاحة، لقد أغاظته، ذلك الوغد الصعلوك يسرقك يا حاج رشيد، خسئ، على كل حال يجب أن تنسى ما كان، فثمة أمر آخر غير عادي، سوف يجري هذا الصباح، بل ستقوم أنت به، هو الأمر الذي بقيت تفكر فيه طوال أيام ثلاثة مضت، وإن كنت في الحقيقة قد فكرت فيه منذ شهر، أو أكثر، منذ خصامك مع أبي أحمد، ذلك الصعلوك الآخر، الذي قال إنه يريد ترك العمل عند الحاج رشيد، ليعمل لحسابه الخاص، شيء مضحك، دعك من ذلك الوغد.

يبدو أنها لم تتغير، بل زادت روعة وبهاء، لعل طول المدة قد أنساك بعض ملامحها، كم أنت مشتاق إليها، إلى رؤية بقية الملامح، والتعرف إليها ثانية، كيف نسيتها طوال هذه المدة، هل أنت وغد أيضاً، لا، الحاج رشيد وفيٌّ مخلص، ولكن كيف لم تفكر فيها في السنوات العشر التي مضت، بل أكثر من عشر سنين، أحمد عمره الآن حوالي اثنتي عشرة سنة، هل يظن ذلك الصعلوك أنها له حقاً، أنت الذي زوجته إياها، إنه طوال عشر سنين لم يستطع أن يولدها سوى مرة واحدة، في بدء حياته معها، ثم ماذا، أنت تعرف، لا شك أن أبا أحمد قد ضعف، هل يعقل أنها لم تخنه طوال هذه المدة، لا شك أنها فعلت، ولكن كيف غفلت عنها، كيف نسيتها، أم أنك كنت لا تريد أن تسترد ما منحت، كما أنها كانت لا تريد أن تخون زوجها معك، لتظل وفية لعطائك، ولكنك أنت الذي زوجتها إياه، وأنت أحق بها منه، يبدو أنها كانت تنتظر منك أن تبادر، لقد صبرت حتى كان يوم الخصام فاتخذت الخصام ذريعة، وخرجت للقائك، بقميص يكشف عن صدرها، ومضت تتوسل إليك، وأنت لم تهدأ فوراً، ومضيت في عنادك وإن كنت في الحقيقة مستعداً لأن تترك كل شيء، لأجلها، أما هو فقد تخاذل كالفأر، لعله دهش لخروجها، وما كان يتوقع أن تتدخل، إنه يخشاها، هل يظن أنه وحده يستطيع أن يقف على قدميه، ماذا؟! هل سيعمل في السوق لحسابه الخاص؟! في السوق تجار كثيرون، ليجرِّب، عشرون عاماً وهو يعمل عندك حمالاً، ثم كفر بنعمتك، الصعلوك، ليذهب ويجرِّب العمل وحده، من يستطيع من التجار

أن يعادي الحاج رشيد ليتعاون مع حمال صغير؟! لن يستمر أكثر من يومين، وابنه أرذل منه، سيرسله إلى المدرسة؟! ليصبح مهندساً أو طبيباً؟! إذا كان في الصف الخامس قد رسب سنتين، فكم سنة سيرسب في البكالوريا؟ انتظر عشرين سنة، هو حمال وسيبقى حمالاً، وابنه حمال مثله، ليس لهم سوى المخزن، حتى هي ما لها سوى المخزن، ما لها سواك، لا تتأخر، دنّسْ ما كنت قد طهرت، ودمِّر ما قد شيدت، لتكن نزوة منك، مثل هذا الضجيج الطائش، لتكن مرة واحدة، تذكرك بأيام الشباب، وليكن بعدها ما يكون.

وهبط درجة المخزن، إلى السوق، أرض الطريق مرصوفة بحجارة قذرة جداً، ثمة قشرة موز، تحاشاها، مرّ بصناديق التفاح الخشبية المسودة، أمام مدخل الدرج توقف هنيهة، لم يتردد، دخل، واحتوته عتمة الدرج.

– ٣ –

(أبو أحمد)

تجاه مخزن الحاج رشيد، وعلى صناديق فارغة متراكمة، قعد يرتشف السحلب الساخن، محتضناً الصحن بجمع يده، مستشعراً دِفأه اللذيذ، في قشعريرة الصباح البارد، وضوضاء السوق من حوله، كدأبها في كل يوم، ولكنها لم تكن في هذا الصباح كعادتها، بل لم تكن كذلك منذ ما يقارب الشهر، لقد كان طوال يوم أمس ينتظر المساء، ويمني نفسه بها، وهي التي قالت له إنها سوف تستحم، سيلتقيها إذن في المساء بضّة ساخنة، ولكنها في المساء حرمته منها، نامت وحدها، وهذا اليوم، أيقظته في الصباح الباكر، ليس من عادتها أن تستيقظ قبله، حتى إنها منذ أن أيقظته قالت له: "**أحمد يجب أن يترك المدرسة، إنه لا يصلح لها، والأفضل له أن يعمل معك في العتالة**"، ويوم أمس أيضاً حدّثه الحاج رشيد في هذا الأمر، ووعده أن يحتفظ لأحمد بأجرته نفسها في الشتاء، إذا كان قدره هو ألا يذهب إلى المدرسة، وأن يعمل عتالاً، فما هو ذنب أحمد؟! لماذا لا يدرس ويتوظف، ألا يحق له ذلك، هل عليه أن يعيش مثله عتالاً؟ هل على الشقاء أن يستمر؟ لقد أمضى هو عشرين عاماً عند الحاج رشيد، في البدء كان يحمل على ظهره، ثم اشترى عربة، وبغلاً كي يجرها، ولم يمض عامان حتى مات البغل، فجَرَّ العربة بنفسه، ثم باعها، وعاد إلى الحَمْل على ظهره، طوال عشرين عاماً هل استطاع أن يدخر شيئاً؟ هل اشتراه الحاج رشيد هو وابنه بماله؟! هل يريد أن يبقى ابنه كما أبقاه هو تحت سيطرته، ليظل طوال عمره بلا بيت ولا مأوى، ثم ليؤجره آخر الأمر غرفتين له على سطح المخزن، يسلبه نصف أجرته إيجاراً لهما، ويمنعه من العمل عند غيره، ثم يزوجه بإحدى الساقطات، هي نفسها اعترفت بكل شيء، وهو نفسه يعرف علاقتها بالحاج رشيد، قبل أن يزوجه إياها، ولكن كيف رضي هو بذلك؟ الحق أنه يفتن بها كل من يراها، إنه لا ينكر، فقد أحبها، ورضي بها، وهي

أقسمت له، وأكدت أنها قطعت كلَّ صلة بها بالحاج رشيد، وتأكد صدقها حين وضعت ابنه احمد إنه يشبهه كل الشبه، إنه ابنه، وهي أمه، لقد أصبح له بيت وزوجة وولد، ولكنها هذا الشهر قد تغيرت، هل تغير هو؟! لقد كبر وعجز، وهي؟!

وارتشف البقية الأخيرة في صحن السحلب، ونادى أبا سعيد، فلباه سريعاً وتناول منه الصحن.

– صحة يا أبو أحمد.

ونقده عشرة قروش، ثم أخرج من شق سرواله علبة تبغ، ومضى يدرج لفافة، حتى السيكارة تريد أن تحرمه إياها، إذا لم يحرق السيكارة فماذا سيحرق؟! هل يحرق مخزن الحاج رشيد، وكيف يحرقه وفوقه بيته؟! وهاهو يكتشف أنه لم يهنأ معها في حياته، حقاً لقد أحبها، وفتن بجسمها، ولكن ماذا أحب فيها؟ إن صوتها ما يفتأ يعلو ويحتد، ويجادل ويخاصم، وصوته ما ينفك يبح ويضعف، إيه، أبو أحمد أكبر عتال في سوق الهال، يفرض سيطرته على كل الحمالين، ومن يجرؤ على أن يخالفه؟! ثم يجد في آخر عمره أنه لا يجرؤ على أن يخالف زوجته؟! إنه لم يخرج من بيته يوماً هانئاً، ولكنه لا ينكر، فقد تمتع بجسمها، ونهل منه، واعتصره وذوبه، وأفناه. ولكن.. في الحقيقة هو الذي فني فيه وضاع، لقد عاش معها ما عاش، وعاشرها ما عاشرها، وهو بها زانٍ، وليس زوجاً، وهذه الشعرات في رأسه قد سقطت، ولم يبق إلا القليل، لقد شاخ وهرم، وهي ما تزال شابة شرسة عنيدة، ولكنه لا يستطيع أن يشك فيها، لقد أخلصت له، ولكنه يشك، لقد أقسمت له، ولا يعقل أن تخونه ولكن الحاج رشيد، له ماض معها، وقد يرغب في استرجاعه، سيغريها بالمال، وقد تشتاق إلى ماضيها معه، الحاج رشيد لم يهرم مثله، ولم يَشِخْ بهذه السرعة، مع أنه أكبر منه، لقد أخطأ يوم تخاصم معه في بيته، ما كان يتوقع ذلك، لقد جاء يطالبه بزيادة في أجرة البيت، فطالبه بالمقابل أن يتركه ليعمل في السوق حراً، عند أي تاجر يشاء، وفجأة غضب الحاج رشيد، وثار، وما كان أن يتوقع أن تتدخل هي بينهما، وتخرج للقاء الحاج رشيد بثوب يكشف عن صدرها، ومنذ أن دخلت صمت، لقد ذهل، هذا هو السر، بعد الخصام تغيرت بشكل ما، لقد أحست بجبنه وتخاذله، فاحتقرته، الحاج رشيد لأجلها يترك له أجرة البيت، يداها الدافئتان ستعوضانه عن كل شيء، لكن، لا، لن يستخدمها الحاج رشيد هي أيضاً، حسبه ابنه يعملان عنده، أما هي، فلا، لا.

– أهلاً أبو أحمد.

بالحبل الملوي فوق صدار العتالة، يمر "صبيح" أمامه متباطئاً، ولا بُدَّ من ردّ التحية، وإن كان في الحقيقة، لا يود أن يرد، ألم يطأ رأسه بقدمه منذ يومين، منذ يومين لا أكثر، النذل، كيف يحييه بوجه أصفر، بارد، في الصباح الباكر.

– أهلاً.

وفجأة رأى الحاج رشيد يخرج من مدخل الدرج، كان يتوقع أن يراه داخلاً، لا خارجاً، ولكن متى دخل؟! هل غفل عن مراقبته؟! "صبيح" هو الذي شغله عن مراقبته، لقد كان عليه أن يشك، لقد تأخر، وهبط عن الصندوق، ورمى بقية السيكارة، وتحسس شيئاً حاداً صلباً في شق سرواله، وهو يشق طريقه وسط أجساد الناس المزدحمين، والحاج رشيد يتجه نحو مخزنه. سيقتله، ثم يذبحها.

- ٤ -

(أم أحمد)

إنها تكاد لا تصدق، بعد عشر سنوات، لقد حدث مثل هذا من قبل، أربع مرات، وفي كل مرة كان أملها يخيب، ولكن هذه المرة، الأمر مختلف، إنها حامل، من غير شك، لن تسمح لأبي أحمد أن يمسها طوال هذا الشهر، ريثما يستقر الجنين، سيغضب، ولكنها ستقنعه، إنه نفسه يريد الولد، تخشى أن تخبره، ثم يخيب أملها، لا شك أنه خرج هذا الصباح غاضباً، ولكنها ستفهمه الأمر حين تتأكد منه، القابلة وحدها تعرف اليقين، لن تخبر أحداً حتى يتأكد كل شيء، ويتضح، وعليها أن تنتظر أحمد حتى يخرج لتذهب إلى القابلة، لقد أيقظته، ونهض، ولكنه تأخر في الخروج، يجب أن يترك أحمد المدرسة ليعمل مع أبيه عتالاً، لا يمكن له أن يدرس، يمكن ذلك للولد الثاني، أما أحمد فلا يمكن، فغداً قد يموت الأب، من سوف يساعده على متابعة الدراسة، إن الدراسة طويلة وشاقة، إذا مات الأب يستطيع أحمد أن يعمل، ويمكن للولد الثاني أن يتابع دراسته، بمساعدة أخيه، أما هو فلا، ولكن ماذا لو كان الولد الثاني بنتاً؟ سوف تدرس هي الأخرى، وأحمد سوف يساعدها، مثلها مثل غيرها.

وارتدت أفضل ثوب عندها، ووقفت أمام المرآة، تطوي خصلات شعرها بين أناملها، وترفعها، ثم تتركها تتهدّل قليلاً، المهم أن تزور الآن القابلة، وهي لن تخجل منها هذه المرة، أمس استحمت، وهذا أفضل ثوب عندها، ماذا تفعل إذا كان زوجها فقيراً، أليست سعيدة معه؟! ولكن لماذا تأخر أحمد، إنها تخشى إذا تأخرت ألا ترى القابلة في البيت، وأحست بضيق شديد، وهي لا تريد أن تخرج قبل أحمد، حتى لا يعرف، ولكن، نادت بصوت قاس:

- **حميدو.. لا تتأخر.**

- ٥ -

(حميدو)

وجاءت الصوت حاداً قاسياً.

- **حميدو.. لا تتأخر.**

ودفع القروش التي كان يتأملها في يده بشقٍّ قميصه، ثم شدّ الحبل على كتفه، وفتح الباب، وخرج، فمرّ بها أمام المرآة، لا شكّ أنها ستخرج من بعده، وعبر السطح إلى مدخل الدرج، ومضى يهبط على الدرجات في الظلمة، وفي أسفل الدرج رأى رجلاً يصعد، وحين اقترب منه، عرف فيه معلمه الذي يعمل عنده، مع أبيه، ولكن ماذا يقصد.

– **تأخرت اليوم يا حميدو، أبوك سألني عنك، جئت أطمئن عليك.**

ثمة شيء غريب في صوته، وكذب كثير، فما اعتاد أن يسأل عنه، وفي العتمة الواجفة تحسس الحبل الملقى على كتفه، وشعر بغموض، فوقف.

– **العمل أفضل من المدرسة، مثلما قلت لك، خذ هذه نصف ليرة، أفطر بها اليوم صحن فول.**

واليد القصيرة الغليظة، تمتد أمام البطن المتكورة المندفعة إلى أمام كشرفة، لم يأخذها، كما لم يغادر الدرج، وتسمّر في أرضه، فالتفت الحاج رشيد، وعاد القهقرى، وظلّ أحمد وراءه، يهبط على الدرجات بطيئاً، إلى نهايتها، حتى خرج الحاج رشيد، واطمأن إلى خروجه، فقفل رجعاً إلى الداخل، يرقى الدرجات بهدوء، ثمة تحفز مبهم، ورغبة غامضة، خصلات شعرها كانت تتهدل على يدها، وثوبها كان جديداً، وفي الصباح توقظه، وأحس بجسمه يذوب في لهب مشتعل، مع أن أنامله كانت باردة تضطرب، دق قلبه، دق كطبلة صغيرة، وبلغ نهاية الدرج، السطح مضيء، متألق بوهج الشمس حاداً ساطعاً، وضوضاء السوق صاخبة، تردّد في مكانه، أمسك بالحبل الملوي على كتفه، ثمة أصوات وصراخ مما يألفه في المشاجرات، لم يبال، ولكن ثمة صوت.

– **حميدو.. حميدو.. أبوك.**

وقفز الدرجات، وعند نهايتها التقى بحسكور لاهثاً.

– **أبوك.. حميدو في المخزن.**

ودخل ضوضاء السوق، عبره إلى المخزن، وحسكور يتبعه، مضى يقتحمه وسط الرجال والصخب والضجة، غير مبال مَنْ يزحم، أو ما يدوس، وهو يشقُّ طريقه في الزحام، يفسح لنفسه مجالاً ضيقاً يتسرب فيه بين الأجساد المتزاحمة، وفي نهاية المخزن، وجد نفسه أمام سكّين مغروسة في ظهر أبيه، الملقى على الأرض، غارقاً في رامة من دم، وغير بعيد منه يقف الحاج رشيد، معافى، نظيف اليدين.

– **أنا، قتلته، دافعت عن معلمي.**

وبيد ندية بالدم، رأى "صبيح" بوجهه الشاحب، وهو يدق على صدره، فارتسمت على صدار العتالة الذي يرتديه كفٌّ بأصابعها الخمسة الحمراء، وكان يريد أن يهمَّ بالاندفاع نحوه، ولكن على ضجيج الناس ولغطهم، وضوضائهم، وصخب السوق، كانت الأشياء أمام عينيه قد أخذت

تدور، وبدأ الصخب والضجيج يهدأ ويخفت شيئاً فشيئاً، والضوء يبهت ويعتم ويغيم، واسودّت الدنيا، ومادت الأرض، ولم يبق سوى العتمة والصمت.

ثم جاء صوت الأم حاداً قاسياً، يمزق كل شيء.

* * *

حكاية الولد

حاملة الأقلام التي تسلمها المدير، يوم أمس، تمرّ اليوم بين يديك في خمسة سجلات، وصل الاستلام، وفهرس الاستهلاك، وبطاقة الذمة، ودفتر اللوازم اليومي، والسجل العام. ومن قبل مرّت بقائمة المشتريات. عشرون مادة خرجت من المستودع يوم أمس، ستمرُّ جميعها هذا اليوم، في المراحل الخمس، وبعد قليل يرن جرس الهاتف، ويطلب منك رئيس الديوان خزانة ومنضدة وكرسياً ومرقّمة وحافظة أوراق وحاملة أقلام، وأشياء أخرى كثيرة، لتشكل أثاثاً لمكتب الموظف الجديد. ومسودّة القصيدة التي كتبتها منذ شهر ما تزال في الدرج، تنتظر منك التهذيب والتنقيح، وأنت في حالة من الفتور والكسل، كأنك ما تزال في السرير، بين النائم واليقظ، وهي أحب الحالات إلى نفسك، في ضحى يوم العطلة. يبدو أنَّ قهوة أبو أحمد لم يبق لها فيك تأثير، هل تطلب فنجاناً ثالثاً؟ والساعة لم تبلغ العاشرة؟ لا بأس، ليكن ذلك بعد ساعة، خذ الآن سيكارة.. حتى نار القداحة فاترة باهتة، بلا لون، أو كأنك تراها كذلك، أنت دائماً كسول، تنفث الدخان فقط. أبو قاسم موظف الدرجة السادسة، أصبح عنده فيلا وسيارة، في أقلّ من سنتين، وأنت ما زلت في موضعك، لو سمعت كلامه، نصح لك بالاستقالة، فلم تستجب، قلت له: "**أنا لا أعمل بالتهريب، التهريب مثل القمار**"، والآن.. لا ينفع الندم، شُدّ جفنيك، افتحهما بقوة، وضع توقيعك على فهرس الاستهلاك، ثم خذ السيكارة، لقد احترق منها قدر كبير، ولكن، ما يحترق فيك أكبر.

- **صباح الخير.**

أبو عمر غالٍ عليك، وتنهض له، وتتحرك عضلات جسمك قليلاً، وتلفت نظرك، بل تدهشك تحية الشاب المرافق له، ها قد بدأت تصحو قليلاً، كأنه يعرفك من زمن بعيد، لا شك أنَّ أبو عمر قد حدّثه عنك، ولكن ماذا قال له؟! شاعر موهوب؟! أم أمين مستودع؟ الحق أن أبو عمر رجل طيب، وهو متهدّم، ولكن الشاب رائع، حتى طريقته في حمل الحقيبة أنيقة وخاصة.

- **حلمي محمد غريب.**
- **أهلاً وسهلاً.**

هكذا أنت دائماً، فاتر جداً، وأبو عمر يشبهك كثيراً، حتى طريقة تقديمه للشاب باهتة، ولكن أبو عمر هكذا بالطبع، هو لا يكتب الشعر مثلك، ولكنه يتذوقه، وكل يوم يزورك ليسمع أشعارك، وهو لا يملأ بطاقات الذمة وفهارس الاستهلاك وقوائم الشراء.. ولكنه يملأ جداول الموظفين، وسجلات الترفيع، عملك وعمله، دولاب دائر، يدور دوراناً مستمراً، وكل يوم تعيد مع أبو عمر نفس الحديث، والعمل والسجلات الوظيفية.

- **أخوه استشهد في عملية ترشيحا.**

– ولكن ألا ترى أنّ المجموعة دخلت في عملية كانت الخسارة فيها، أعني الشهادة، محسوبة سلفاً.

ما هذه الموهبة في النقاش، يبدو أنك استيقظت، ولكنك نسيت أنه أخوه، وأنت ترتجل بسرعة، هذه عادتك دائماً، لا يمكن التنقيح والتغيير والتعديل الآن، دائماً تكتب القصيدة دفعة واحدة، في سهرة، ثم تعود إليها بالتنقيح، فتهذب الألفاظ، وتعدّلها وتغيّر فيها، تتعب في التنقيح أكثر مما تتعب في الكتابة، ولكن الشاب لم ينفعل، وابتسامته اللطيفة لا تفارق وجهه.

– وكم كان عمره؟

– أقل من ١٩ سنة.

– وهل عنده أولاد؟

مرة أخرى تتعجل في سؤالك، لعلك لم تَصْحُ بعد، خذ سيكارة ثانية، يبدو أنك ما زلت بين اليقظة والنوم، وهذا أبو عمر يحدّق فيك، لا شك أنه يضحك منك في أعماقه، لكن، لا، لا، أبو عمر رجل طيب، وهو يقدرك ويحترمك، بل إنه ينظر إلى عينيك ويرى الانتفاخ في جفنيك، سيظن أنك سهرت الليل في كتابة قصيدة، إنه يطرب للقافية وللنغم، ويرى فيك موهبة لا تقدَّر، ولكنك في الحقيقة نمت يوم أمس نوماً طويلاً طويلاً، على كل حال أنت لم تخطئ، فالشباب في الريف يتزوجون في سن مبكرة جداً، ويبدو أن الشاب لم ينتبه إلى غلطك.

– مش متزوج.

– وعندكم غيره؟

– خمسة إخوة، وثلاث بنات.

– هو أول شهيد؟

– في أسرتنا الأول، لكن قبله آلاف الشهداء، من أبناء الوطن، وقبله استشهد ابن عمتي، واثنان من أولاد خالي.

– وأمك؟ ماذا فعلت؟!

– زعلت.. شيء طبيعي، لكن مش مثل ما تتصور أو تظن، زعل من نوع آخر، زعل لفقده فقط، يومها قالت ببساطة: لو عندي عشرة لبعثتهم كلهم إلى فلسطين.

ها، تكاد تصحو، كأنك تصحو من سريرك، إنه يحدثك مثلما يتحدث الأساتذة عن الخنساء أمام طلابهم، لكن فرق كبير بينه وبين الأساتذة، وأنت، أنت تذكر جيداً أم خالد، لقد شقّت أم خالد ثيابها، وتعلقت بالنعش، ورمت نفسها فوق القبر، ونثرت على رأسها التراب، ومن قبل أغمي عليها حين قدموه للغسل، كل مرحلة يمر بها جثمانه، كانت تصحبها طقوس من الحزن، تشنج وصراخ وعويل وآهات وبكاء وندب، نامت أقل من ساعة، ثم نهضت ونصفها الأيمن مشلول، ما كان خالد أصغر أبنائها ولا أكبرهم، ولا كان وحيدها.

– وكيف دخلوا إسرائيل، قصدي الأرض المحتلة، فلسطين؟!

– طبعاً تسللوا، ناموا ليلة في الأرض المحتلة، وأمضوا يوماً في بيت فلسطيني، وصباح اليوم الثاني، وتوجهوا إلى ترشيحا، واحتلوا المبنى.

– هذه أول عملية قام بها أخوك؟!

– لا، اشترك من قبل في أربع عمليات.

– وما الفائدة؟!

ماذا دهاك اليوم؟ ما هذه الحركة المنفلتة من يدك، لقد انتبه إليك أبو عمر وأنت تلقي القلم، ثم تشبك أصابع يديك، فتقرقع العظمات في أناملك مطقطقة في ملل، أصابعك تشنجت لا شك، وأنت تملأ الاستمارات والبطاقات والفهارس، وتشنجت معها روحك، ولكن لم تكن هكذا من قبل، أنت بنفسك اخترت الوظيفة، ودافعت من أجلها، ولكن لم تتصورها هكذا، ترى هل تتشنج الأصابع على المدفع الرشاش والرصاص ينهمر منه؟ إن أصابعك ما تشنجت قط وأنت تكتب قصيدة، ولو بقيت ساعة تكتب وتكتب، ولكن الشعر هو الذي تشنج من بعد، لقد استهواك البحر الكامل، وإذا أكثر قصائدك من البحر الكامل، آه، والشاب يدافع عن استشهاد أخيه، لم يفقد هدوءه، ولا اتزانه، ولا ثقته بأخيه وبقضيته، هل تثق أنت في الشعر؟ إنه على كل حال ليس كالأشياء التي تسلمها كل يوم وتسجلها في بطاقات الذمة وفهارس الاستهلاك، وأبو عمر ينظر إليك بملل، لقد سمع القصة من الشاب، قبل أن يأتي به إليك، ولكن ماذا يتوقع منك، هل سيطلب منك أن تكتب قصيدة رثاء، آه، نعم، لقد طلب منك مثل هذا من قبل أخو خالد، وسهرت ثلاث ليال وأنت تشطب وتكتب، وفي آخر الأمر أنقذت نفسك، إلقاؤك وحده هو الذي أثّر في الناس، وكلهم من الأقارب، وأكثرهم لا يقرأ ولا يكتب، وأنت تعرف خالداً جيداً، ولكن الشهيد، شقيق هذا الشاب لا تعرفه، ولا تعرف عنه شيئاً، كيف ستكتب؟ وماذا ستقول؟ ربما كان في حفل تأبينه من يفهم الشعر أكثر من أبو عمر، أبو عمر لا شك ذواقة، ولكن في مستوى شعرك، وأنت من عشرين سنة ما قرأت قصيدة لشاعر، وما حفظت بيتاً، غير شعرك، ثم إن أبو عمر يعرف جيداً أن شعرك في الغزل، وهو غزل خيالي، فأنت هنا مسجون في غرفة صغيرة، وخارجها لا تعرف غير زوجتك، ومرة ستقع فيها، ولكن، لعل الشاب جاء يطلب تبرعاً منك بمبلغ ما للعمل الفدائي، هاهو يفتح الحقيبة.

– هذه آخر صورة لأخي مع رفاقه قبل دخول فلسطين، وهذه صورة له مع رفاقه في أثناء التدريب، بملابس الميدان، هذا قائد المجموعة، ٢٥ سنة وهذه، جريدة السفير نشرت صورة لجثثهم، الصورة الوحيدة التي سمحت بها إسرائيل، وتناقلتها كل صحف العالم، هذا أخي، وجهه مشوه، ولكن هذا قميصه.

أنت بنفسك تريد أن تغمض عينيك، شيء مؤلم، مؤلم جداً، ولكن الأخ، لهجته هي نفسها، لم تتغير، واثقة، وابتسامته هي هي، ثمة ألق في عينيه، هل هي دمعة ترقرقت فجالت في حدقته، فازداد ألق عينيه؟! إنه أخوه، وهو يتحدث، وأبو عمر يحدّق فيك، نظرته غريبة، فيها بلاهة، أم فيها دهشة، إنه صامت، عادته أن يثرثر كثيراً، ولكنه اليوم صامت، هل فوجئ مثلك بإنسان يفعل شيئاً آخر غير شرب القهوة ومحاولة الخلاص من ثقف الجفون، وتبلد العضلات وراء المنضدة، وتشنج العضلات وهي تملأ بطاقات الاستهلاك. يبدو أنك صحوت، ولكن على الأرجح، كما تعتقد، جاء به إليك، ليحرّك فيك الشاعرية، قد لا يطلب منك كتابة قصيدة، ولكنه بشكل غير مباشر يريد استثارة قريحتك.

– بعثت إلينا المنظمة بشريط سجل عليه بصوته وصيته قبل دخوله فلسطين، لو تسمع الشريط، غنى فيه غنيتين، مع واحد من رفاقه.

هو يغني، وأنت تكتب الشعر، وأصابعه تتشنج على المدفع الرشاش: وأصابعك تتشنج وأنت تملأ بالقلم بطاقات المواد المستهلكة. وآخر حفلة اشترك فيها خالد كانت مسجلة على شريط، أرادت الأم سماعه، ولكنها لم تجده، كان أخوه سمير قد أخفاه، وهو يستمع إليه كل يوم سرّاً، ويجهش في البكاء. خالد كان يغني أيضاً، أو كان يعزف. لقد هوي خالد العزف على القيثار، ومرة جاءت إلى البلد فرقة أجنبية، فاشترك هو بنفسه في العزف مع الفرقة، يومها قيل إنه تفوق على الأجانب أنفسهم، أنت لم تحضر الحفلة، لقد أعطاك بطاقة، ولكنك لم تذهب، هكذا أنت دائماً، أسير الوظيفة نهاراً، وأسير البيت مساء، والشعر، الشعر هو عزاؤك، على كل حال، لقاؤك بالشاب ممتع، ولكن يجب كسر طوق الصمت المخيم، المشكلة أنه لا يدخن، وكذلك أبو عمر، إذن أشعل سيكارة، وانفث الدخان، ثم اسأله، ولو مجاملة.

– كيف تمت العملية؟

– إسرائيل ما روت التفاصيل، وما سمحت للصحفيين بغير الصورة التي رأيتها، ولكن بعض التفاصيل سرّبتها وكالات الأنباء، وأظن أنك سمعتها من الإذاعات، عندي نشرة وزعتها المقاومة، فيها تفاصيل سرّبها بعض الموطنين في فلسطين.

– أنا سمعت أنهم احتجزوا ٢٠٠ رهينة.

– صحيح، وربما أكثر.

– ولكن قيل إن المبنى الذي احتلوه كان داراً للعجزة.

– مش صحيح، كان مثل نادٍ للضباط أو استراحة لهم، احتلوا الطابق الثاني، ثم طلعوا إلى السطح، فاحتلوا المبنى كله، واحتجزوا ٢٠٠ ضابط، وبعثوا بثلاث رسائل إلى ثلاثة سفراء في القدس وأذاعوا بمكبرات الصوت أن غايتهم مش القتل، ولكن إطلاق سراح رفاقهم في

سجون إسرائيل، وحذروا الجنود من الاقتراب من المبنى، ولكن إسرائيل بعثت الهيلوكبتر والكوماندوز، وقتل على الأقل ١٠٠ من الضباط المحتجزين.

- واستلمتم جثمان أخوك؟

- طبعاً، لأ، لكن المواطنين العرب هناك استلموا الجثث ودفنوها.

- ما عرفتم كيف كان استشهاد أخوك؟

- مثلما قلت لك، لم تستطع وكالات الأنباء نقل شيء من تفاصيل العملية، لكن قيل: إن واحداً منهم فجّر نفسه بقنبلة كانت آخر ما بقي معه من ذخيرة.

في الطريق إلى العاصمة، وقع الحادث، لقد دخلت سيارة خالد في شاحنة، من خلف، هكذا حدثك منير، صديق خالد، ولقد قال لك إن التقرير الطبي أفاد بأن خالداً كان يقود سيارته وهو ثمل، كما أكد الكشف بأن سرعة السيارة قد تجاوزت المئة حين وقع الحادث، لقد قال لك منير إن خالداً كان مسافراً إلى العاصمة ليحصل على تأشيرة خروج خاصة، وقد سافر في نفس اليوم الذي حصل فيه على جواز سفر، أنت تعرف جيداً أن لخالد رغبة في السفر إلى الغرب، لقد حدثك مرة بذلك، قال إن الغرب هو المكان الوحيد الذي يستطيع فيه تحقيق ذاته، أما هنا فلا مكانة له، لعل الفرقة الأجنبية التي عزف معها هي التي أغرته بالسفر إلى الغرب، لقد كان دائم التذمر والضيق بالناس، وهذا أبو عمر يتنحنح، كأنه يريد الكلام، وهو يتحرك مستعداً للخروج.

- جئت أطلب منك قنينة حبر، هل أقدم طلباً خطياً؟؟

- لا يا أبو عمر، بعد قليل أرسلها لك مع المستخدم.

- إذن، نودعكم.

- ولكن لم نقدم لكم القهوة.

- لسنا ضيوفاً، ولكن أردت أن أسألك.

- تفضل يا أبو عمر؟!

- الشاب الذي معي.

- نعم؟!

- كان مستأجراً غرفة، في الدار المجاورة لي، وهو نعم الجار، شاب طيب ومهذب، وقد طلب منه صاحب الدار زيادة في الأجرة، وهو يريد الانتقال إلى غرفة أخرى، نسيت أن أقول لك إنه طالب جامعة، سنة ثالثة، ولا أعرف، إذا كان في جوارك من يؤجر غرفاً للطلاب، أو إذا كان صاحب البيت الذي أنت مستأجر عنده لديه غرف للآجار، أذكر أنك قلت لي مرة إن لديه غرفاً يؤجرها للطلاب.

- نعم، نعم، ولكنه رجل يطلب أجرة مرتفعة دائماً.

- طيب، ألا تعرف أحداً حولك يؤجّر غرفاً للطلاّب.

– لا، لا أذكر، ولكن سوف أسأل، من أجلك.

تذكر خالداً، قريبك، كانت لديه غرفة خاصة، للدراسة، ثم سمعت أنه استأجر شقة، من غير أن يُعْلِمَ أهله، كان يجتمع فيها مع أصدقائه للسهر، والرقص، والعزف، والغناء، ثم عَلِمَ أهله، فما قالوا شيئاً، كان يتذمّر دائماً من الواقع، ويتمنى أن يعيش حياة خاصة، حياةً – كما قال لك هو نفسه – كالحياة التي يعيشها الناس هناك في الغرب، ولكن ألا تتمنى ذلك أنت أيضاً، في الحقيقة تتمناه، ولكن لا تستطيع فعله، دعك من هذا الأمر، وعد إلى عملك، شُدَّ جفنيك، وافتحهما، ولكن كنتَ قد صحوت، هكذا قلت، يبدو أنها غدت عادة، لهذا كان أبو عمر يحدّق فيك، هل انتبه إليك وأنت تفعل ذلك، بل تكرره؟ لا، أبو عمر رجل طيب، وذواقة، وهو يحب الشعر، ويقدّر فيك موهبتك، وكما قلت، ما جاء الشابّ إلا ليحرك في نفسك الشاعرية، عساك تكتب قصيدة جديدة، وسيرجع بعد قليل، من غير شك، ليسألك أن تنشده بعض شعرك.

– ألو.

ليس رئيس الديوان، إنه صوت معاون المدير، لكن لماذا يطلبك، ليس من عادته، على كلّ حال، ولكن لم هذه المقدمات الطويلة، ثمّة أمر من غير شك، هذا أسلوبه.

– .. بين يديَّ كتاب من مدير الدائرة، فيه اقتراح على المدير بتسجيل عقوبة لم يصل بعد إلى المدير. تسألني عن السبب؟ آه.. لا بأس، سأخبرك، بل سأقرأ عليك، أتسمعني: .. وذلك لاشتغاله بكتابة الشعر ونظمه في أثناء الدوام الرسمي.. على كل حال، الكتاب لم يصل إلى المدير، أنا سأتصرّف..

أنت إذن تشتغل بكتابة الشعر في أثناء الدوام الرسمي، ولكن هل هناك تقصير في العمل، أو تأخير، أو خلل، أو نقص، هل تأخرت مرة عن وظيفتك، إنّ مكتبك الصغير، المحفور حفراً في أسفل المبنى، مثل جحر جرذ، هو عالمك الوحيد، تعشقه، تفر إليه كل يوم من بيتك، وتود ألا تخرج منه، إنك لا تريد لساعات الدوام أن تنتهي، لأنك مطمئن ومرتاح إلى هذا المكتب الرطب المعتم، المعزول عن العالم، وحين يطلب منك الدوام المسائي ترحّب ترحيباً، وهذا معاون المدير يعرض عليك خدماته، إنه يعلن عن وقوفه إلى جانبك، أو بالأحرى، يقرر وقوفك أنت إلى جانبه، إنه يريد شراءك، والمساومة عليك، ليكسب في هذه الدائرة موظفاً إلى جانبه، حتى لو كان موظفاً صغيراً، مثلك، في هذه الدائرة، لا قيمة له، ولا وزن، أو لعلك لا تدري أنك ذو دور، وأنه سوف يستفيد منك، لقد كان أبو قاسم على صواب حين استقال وعمل في التهريب، وأنت؟ لا، لن تستقيل، ستبقى أميناً للمستودع، تكتب الشعر. وهذا جرس الهاتف يرن ثانية، إنه من غير شكٍّ رئيس الديوان، سيطلب منك الآن طاولة وخزانة وحاملة أقلام ومرقّمة وحافظة أوراق.. وأشياء أخرى كثيرة، لتشكل أثاث مكتب، للموظف الجديد، والعشرون مادة التي خرجت يوم أمس، يجب أن تمرَّ اليوم في السجلات الخمسة، وصل الاستلام وفهرس الاستهلاك، وبطاقة الذمة، ودفتر

اللوازم اليومي، والسجل العام، وحاملة الأقلام التي تسلّمها المدير يوم أمس، لم تَمُرَّ بَعْدُ بواحدة من تلك المراحل الخمس الطويلة، وأنت ما تزال تحاول أن تصحو، ولكنك ما تزال أيضاً كأنك في فراشك، بين اليقظة والنوم، وهاهي ذي السيكارة ذابت في المنفضة، ولم يبق منها شيء. إذن لا بُدَّ من فنجان قهوة، فلتطلب من أبو أحمد الفنجان الثالث.

تعليقات

١) في ١٣ كانون الثاني ١٩٧٩ قام ثلاثة من الفدائيين الفلسطينيين باحتلال مبنى استراحة الضباط في قرية ترشيحا (معالوت)، في فلسطين، واحتجزوا مئتي رهينة، وطلبوا إخلاء سراح عدد من رفاقهم الأسرى، في سجون العدو، وتأمين خروجهم سالمين إلى إحدى العواصم العربية، وأعطَوُا الحكومة الإسرائيلية فرصة مُدِّدَتْ مرتين، ثم قامت الحكومة الإسرائيلية بالغدر بهم، إذ حاصرت المبنى، وأنزلت قوات الكوماندوز، وقتلت الفدائيين الثلاثة.

٢) الفدائيون الثلاثة، هم:

أحمد محمد غريب، مواليد ١٩٥٨

عبدالقادر الموالدي، مواليد ١٩٥٤

أحمد علي محمد حبايب، مواليد ١٩٥٦

٣) القصة تتحدث عن العملية معتمدة على ما رواه لي حلمي غريب، شقيق أحمد غريب، أحد فدائيي العملية.

٤) أتيح لي سماع الشريط الذي سجل عليه الفدائي أحمد غريب وصيته، قبل القيام بالعملية، وأنقل منه هنا هاتين الأغنيتين اللتين أدّاهما بصوته:

" ١ "

أنـــا فـــين أنـــا فـــين	أنـــا فـــين وبـــلادي فـــين
محـــروم مـــن أرضـــي	مـــا تشـــوفا العـــين

أمي ثوب العزا اشلحي
أمي ثوب الفرح البسي

محـــروم مـــن أرضـــي	اليـــوم بـــدها تشـــوفا العـــين

" ٢ "

يـــا طيـــرة طيـــري يـــا حمامـــة	مـــن غـــزة لأرض الكرامـــة
جيبـــي لـــي مـــن أمـــي علامـــة	قـــولي لهـــا ابنـــك جـــاي
علـــى دينـــي يـــا فلســـطيني	علـــى دينـــي النصـــر أكيـــد والله

دخلنـــــا جنـــــوب لبنـــــان	ونزلنـــــا الأرض المحتلـــــة
ركزنـــــا المـــــدفع ع التلـــــة	بلشـــــنا نقصـــــف نـــــار
تقاتلنـــــا وتباســـــلنا	واستشـــهد منـــا بطـــل مغـــوار
يـــا طيـــرة طيـــري يـــا حمامـــة	مـــن غـــزة لأرض الكرامـــة
جيبـــي لـــي مـــن أمـــي علامـــة	قـــولي لهـــا ابنـــك جـــاي
علـــى دينـــي يـــا فلســـطيني	علـــى دينـــي النصـــر أكيـــد والله
دخلـــت مجموعـــة عمليـــة	مـــن الفرقـــة الانتحاريـــة
أســـرنا مـــنهم ثلاثميـــة	وقلنـــا فرطـــة حراميـــة
يـــا طيـــرة طيـــري يـــا حمامـــة	مـــن غـــزة لأرض الكرامـــة
جيبـــي لـــي مـــن أمـــي علامـــة	قـــولي لهـــا ابنـــك جـــاي
علـــى دينـــي يـــا فلســـطيني	علـــى دينـــي النصـــر أكيـــد والله

٤) يشير عنوان القصة إلى المجموعة الشعرية: "**حكاية الولد الفلسطيني**" للشاعر الفلسطيني: أحمد دحبور.

* * *

رجل بين المسافرين

رأس صغير، وشدق واسع عريض، وأنف كبير مفلطح، وعينان صغيرتان، والجسم بعد ذلك هائل، والبطن أكبر من برميل.

لا بُدَّ لكلِّ مَنْ سافر إلى خارج البلدة، ولو مرة واحدة، من أن يكون قد رآه، فهو يتنقل دائماً بين المسافرين، في مركز انطلاق الباصات، السيكارة لا تنزل من بين شفتيه الغليظتين، وهو يلوب من مكان إلى مكان، يتفرس في الوجوه، بصمت وبلاهة، في ثيابه القذرة، وشعره المشعث، قد يتحاشاه بعضهم، وقد يتحرش به آخرون، ولكن غالباً ما لا يبالي به أحد، فهو يجوس في أرجاء مركز الانطلاق، بصمت، مثل كلب أجرب.

ما كان يُعرف باسم، ولكن بعض الحمالين، وأحياناً السائقين، كانوا ينادونه "شحمة" وغالباً ما يرمونه بسيكارة، أو يقذفونه بشتيمة، ساخرين منه، وهو يتقبل كل شيء، بصمت، الشتائم والسكائر، ولا يطلب شيئاً ألبتة.

أمّا الطعام، فيكفيه ما يلتقطه من أرجاء المركز، مما قد يرميه مسافر، أو حمّال من بقايا طعام، وإذا عزّ عليه العثور على شيء، لجأ إلى الباب الخلفي لمطعم المركز، وعندئذ لا يضنُّ عليه الخدم هناك بشيء من بقايا الصحون، ولكنّه نادراً ما كان يلجأ إليهم.

وحيثما غلبه النعاس كان يتمدّد فينام، على الأرض، ومن غير غطاء، سواء أفي صيف أم في شتاء.

ومرة رآه أحد المسافرين، فبهت، ووقف يتأمله، ثم سأله مستغرباً:

- أهذا أنت يا شحمو؟!

فلم يبال به، ومضى

فأضاف المسافر قائلاً:

- يا خسارة؟!

لقد كان "شحمو"، ثم أضحى "شحمة"، وفي كلِّ الأحوال، لم يكن "شحمو" ولا "شحمة" هو اسمه، كما لم يكن حاله كذلك في البدء، بل لم يكن حاله كذلك قبل بضع سنوات.

لقد كان حمالاً من كبار الحمالين، في مركز انطلاق الباصات، وكان يفرض هيبته على جميع الحمالين، ولكن ذات يوم، ولا أحد يعرف كيف حدث ذلك، سقط تحت الحمل، كان حملاً عادياً، ولكنه سقط تحته. يُروى أنه رفع مرة على ظهره باصاً من مقدمته، وظل يرفعه وحده، حتى فك السائق العجلة الأمامية، وبدّل بها واحدة جديدة، لم ينتفخ له عرق، ولم تظهر على جبينه حبة عرق، ولكنه في ذلك اليوم، سقط تحت الحمل، وما عاد بعد ذلك يحمل شيئاً.

ومنذ ذلك الوقت أصبح "شحمو"، فقد أصبح يقوم بدور (التشحيم) بين المسافر والحمال، فتسير الأمور بعد عرقلة، فحيثما حلّ خلاف بين مسافر وحمال، حول أجرة الحمولة، كان هو

الحكم، يَلقي نظرة واحدة إلى الحقائب، وأخرى إلى المسافر، ثم يقرر الأجرة، وقوله هو الفصل، يخضع له المسافر والحمّال، ولا غبن فيه.

كان آنئذ يتنقل بين المسافرين، من الفجر إلى وقت متأخر من الليل، لا يهدأ ولا يفتر، وصوته يجلجل هنا وهناك، ولا أحد يعرف أين ينام، وما من مرة رآه أحد ممدداً على أرض، أو في ظل جدار، فقد كان على الأغلب ينام على ظهر أحد الباصات صيفاً، وينام على مقعد داخله، شتاءً.

ويروى أنه كان قد تزوج مرتين، وإن كان هو نفسه لا ينفي ذلك، ولا يؤكده، كما أنه كان لا يبدي اهتماماً بالمرأة.

ويروى أنه كان مرة في جلسة مع بعض الحمالين، فاتهمه أحدهم بالعجز، ونفور المرأة منه، وهو يمزح، فأمسك بعنق الرجل، وكاد يخنقه، لولا تأكيد الحمالين أنه كان يمزح، ولكنهم لم يلبثوا أن سألوه عن سبب تطليقه، مرتين، فحدّق فيهم، ثم نهض.

ويروى أيضاً أنه دخلت مرة إلى مركز الانطلاق امرأة، في البدء لم يولها شيئاً من الاهتمام، ولكنه فجأة نهض، وأسرع إليها، وحمل الحقيبة التي كانت في يدها، ثم قادها إلى الباص الذي كانت تريد السفر فيه، وهو ما لم يفعله من قبل، وقد سئل بعد ذلك عن السبب، فأجاب بأنه رأى في عينيها ما لم يره قط.

وقد ظل يذكرها بين الحمالين أمداً، ثم عاف ذكرها.

وكان يملك قوة رهيبة، فقد روي أنه تخاصم مرة مع ثلاثة من الحمالين، فطرحهم جميعاً، من غير أن يستطيع أحد منهم مسه، ولكن في اليوم التالي خرج له أحدهم فجأة من وراء باص، وطعنه بسكين في بطنه، فاندلقت أحشاؤه، فبصق في وجهه، ولم يفعل شيئاً، غير أنه حمل أحشاءه بيديه، وقفز إلى أحد الباصات، وطلب من السائق أن يحمله إلى المستشفى.

وكان لا يقع في يده قرش أبداً.

أما السيكارة، فقد كانت له في كل صباح علبة تبغ، يقدمها له برضى تام، صاحب المطعم، في مركز الانطلاق، فيأخذها، وهو يشكره، ولا يتردد بعد ذلك في قبول سيكارة من هذا أو ذاك، من الحمالين أو السائقين، وربما طلبها أحياناً من أحدهم طلباً.

كما لم يكن له في اليوم سوى وجبة واحدة، يقدمها له في المساء، برضى تام، صاحب المطعم أيضاً، فيتناولها، ثم يخرج، وهو يشكره، ولكن إذا اجتمع بعض الحمالين على شرب الشاي أو على شيء من الطعام، فهو المدعو الأول، بل لا يجتمع اثنان من الحمالين، إلا كان هو ثالثهما، بدعوة من أحدهما، وربما دعاه إلى شيء من ذلك بعض السائقين.

وكان لوجبة المساء، التي يقدمها صاحب المطعم، ولعلبة التبغ في الصباح، قصة، إذ يروى أنَّ صاحب المطعم كان أكثرهم بغضاً له، ولكنه أصبح أكثرهم حباً. فقد تخاصم معه مرة،

من أجل أربعة من الحمالين، تناولوا عنده وجبة غداء، واختلفوا في السعر، وانتصر "شحمو" للحمالين، ومنذئذٍ فرض على صاحب المطعم أن يقدم للحمالين وجبات بأسعار خاصة، وقد غضب منه صاحب المطعم، ولكنه لم يلبث أن رضي عنه، وأخذ يقدم له كل مساء وجبة طعام، وكل صباح علبة تبغ، فقد وجد أنَّ السعر الخاص بالحمالين، قد حقق ربحاً أكبر، للإقبال الذي لقيه مطعمه منهم.

ولكن، كل شيء تغير.

فقد حدث ذات يوم أن عُيِّنَ مدير جديد لمركز انطلاق الباصات، فقرر جعل جميع الحمالين عاملين في المركز، بأجور ثابتة، يتقاضونها في نهاية كل شهر، وأن يقوموا بحمل الحقائب للمسافرين، من غير أن يتقاضوا منهم شيئاً، وذلك بموجب تذاكر يشتريها المسافرون، مع تذاكر السفر، وعلى الفور قرر جميع الحمالين الإضراب، وكان "شحمو" في مقدمة المضربين، وقد استمر الإضراب ثلاثة أيام، انقطعت فيها أرزاق الحمالين، وباتوا عرضة للجوع، وكان "شحمو" يطوف بهم، ويحضهم على الاستمرار في الإضراب، ويوحد كلمتهم.

وكاد الحمالون أن يقطعوا الإضراب، لولا تحريض "شحمو" ودعوته لهم إلى الاستمرار يومين آخرين، ومضى إلى من يعرفهم من السائقين، وأخذ يحرضهم على مشاركة الحمالين في الإضراب، فلم يستجب له أحد، فلم ييأس، ومضى إلى المدير، فدخل عليه، وأخبره أن السائقين سيشاركون الحمالين في الإضراب، وأن بعض الحمالين ينوون القيام بعمل ما، ثم عرض على المدير أن يستبدل بقراره قراراً آخر، يحدد فيه أجرة الحمولة، ويبقى الحمالون أحراراً، يعملون لحسابهم الخاص، ولكن المدير رفض، وطرد "شحمو".

ورجع إلى الحمالين خائباً، ولكنه نصح لهم بالاستمرار في الإضراب، وحذرهم من العمل بأجور ثابتة، وقال لهم:

- **لا تبيعوا أنفسكم.**

ولكن الحمالين لم يستطيعوا الصمود أمام الحاجة، فخذلوه.

وغاب "شحمو" عن مركز الانطلاق مدة، لا أحد يعرف أين أمضاها، ولكنه لم يلبث أن ظهر فجأة في المركز، وعلى الفور أرسل المدير وراءه، يطلب مثوله بين يديه، ولكنه لم يستجب، وقال لأحد الحمالين: "**بلِّغ مديرك أن شحمو صار شحمة**".

ومنذ ذلك الوقت أصبح "شحمة".

ترك المطعم، ولم يدخله أبداً، وترك الحمالين، ولم يجتمع مع أحد منهم على طعام أو شراب، وأخذ يظهر هنا، وهناك، بين المسافرين، صامتاً، كالأبله، مشعث الشعر، قذر الثياب، كم أصبح لا يتردد في التمدد على الأرض، ظهراً أو عصراً، أو مساءً، في ظل جدار، أو تحت

باص، أو في أي مكان، وما عاد صوته يسمع، وما عاد يناديه أحد، إلا سائق أو حمال، يريد السخرية منه.

وذات يوم، سأل أحد الحمالين زميلاً له، فقال:

– **غريب، لا أرى شحمة؟!**

فأجابه زميله، وكأنه ذكره بشيء، كان قد نسيه، فقال:

– **حقاً، وأنا لا أراه أيضاً.**

ثم مضى كل منهما إلى عمله.

وفي يوم آخر، أو ربما بعد يومين، تناقل الحمالون نبأ موت "شحمة". روي أن أحد السائقين كان يتجه إلى باصه الذي كان في أقصى مركز الانطلاق، فرأى جثة "شحمو" في ظل جدار، وقد روي أنها كانت غير متفسخة، مما يرجح أنه تمّ العثور عليها بعد الوفاة بوقت غير طويل.

ونقل جثمان "شحمة" في سيارة إسعاف، من غير جلبة، ولا ضجيج، ولم يعرف أحد سبب الوفاة، أو طبيعتها، ولعل أحداً لم يسأل عن ذلك.

وكان المدير يومئذ في إجازة، ولم يعلم بالنبأ إلا بعد مدة.

أما صاحب المطعم فقد روى أحد الحمالين أنه رآه وهو ينظر إلى سيارة الإسعاف خارجة من المركز، والدموع تترقرق في عينيه. وقال ذلك الحمّال أيضاً إنَّ صاحب المطعم أبدى أسفه، وتمنى ألا يكون "شحمة" قد مات من الجوع.

وبعد وفاة "شحمة" ربما بأشهر، قال أحد المسافرين، ذات يوم، للحمال الذي كان يحمل حقيبته، وهو ضائق متذمر:

– **ثلاث ليرات أجرة حمل حقيبة صغيرة؟! شيء غير معقول؟!**

فأجابه الحمال:

– **ما ذنبي أنا؟! هكذا النظام، تقطع تذكرة بثلاث ليرات، أو بخمس، أو بعشر، هل أخذنا نحن منك شيئاً؟!**

وأخذ المسافر يجري وراءه، وهو يمضي بحقيبته مسرعاً، حتى بلغ الباص.

وفي يوم آخر، قدّم أحد المسافرين لحمال آخر تذكرة الحمولة، فنظر فيها الحمال، ثم سأله باشمئزاز:

– **كم حقيبة معك؟!**

– **أربع.**

فقال الحمال على الفور، بلهجة حازمة:

– **تدفع لي خمس ليرات.**

بهت المسافر، ثم قال مستنكراً :

- **ولكني دفعت ثمن تذكرة الحمولة عشر ليرات؟!**

فأجاب الحمال:

- **إذا لم يعجبك، فاحملها بنفسك.**

دهش المسافر، ثم أضاف مهدداً:

- **سأشكو الأمر إلى المدير.**

فضحك الحمال ساخراً، ثم قال:

- **جرب ذلك، سترجع بالخيبة، ولن أحملها لك بعد ذلك، كما لن يحملها غيري، ولو دفعت مئة.**

وهمّ الحمال بالمضي، ولكن المسافر ناداه معلناً موافقته، فأجابه:

- **ادفع أولاً.**

ونقده المسافر خمس ليرات، وهو يقول ضائقاً:

- **أين أنت يا "شحمو"؟!**

فأجابه ساخراً، وهو يضحك:

- **"شحمة" مات، فطس.**

ثم نقل الحمال الحقائب، إلى الباص، وقعد المسافر في موضعه منه، ومن وراء زجاج النافذة، أطل على رصيف مركز الانطلاق، حيث كان المسافرون والحمالون والباعة، يتحركون في ضجيج وصخب وفوضى، وأدام النظر في الجمع، ثم زفر، كأنه يبحث فيهم عن "شحمو" أو عن شبيه به.

ثم تحرك الباص، وحل في موضعه باص آخر، لاستقبال المسافرين، وفي رصيف مركز الانطلاق ما تزال حركة المسافرين والباعة والحمالين، في فوضى وجلبة وضجيج.

الممرضة

أغراه الماء المتجمِّد، أمسك به، أطبق عليه أصابعه، أحسّ به لزجاً دافئاً، يتلوى، ألقاه، فإذا هو حية سعت نحو قدمه.

قفز من السرير إلى الأرض، رفع الغطاء، نظر إلى موضع قدميه في الفراش، ثم عاد إلى السرير.

فرك عينيه، وهو يتثاءب، أشعل سيكارة.

تناول ساعة يده من تحت الوسادة، نظر إليها، فإذا هي تشير إلى الثالثة، خضّها، ألصقها بأذنه، أدرك أنها لا تعمل.

العتمة تكاد تخيم، لا شكَّ أنَّ الساعة قد تجاوزت الخامسة.

نادى زوجته، فدخلت، وهي تنشِّف يديها بخرقة قميئة، ثم سألت:

– **ما الذي أيقظك في هذا الوقت؟!**

أدرك أنها كانت تتمنى ألا يستيقظ قبل أن تفرغ من عمل المطبخ، فلم يجب، وسألها:

– **هل خرجت أمل؟!**

– **نعم، وأكدت لي، كعادتها كل يوم، أنها ذاهبة إلى صديقتها منى.**

– **أعدِّي لي فنجان قهوة.**

وقعد في الفراش، والسيكارة بين شفتيه.

النافذة الضيقة المعلقة في الجدار، تحت السقف مباشرة، تنقل إليك أصوات الأقدام على الرصيف، ولكن الستارة تحجب عنك الرؤية.

هذه أقدام نسوية تقترب، تمر بك، وترن الضحكات، ثم تمضي، الشذا يتسرب إليك، يملأ صدرك، وأنت هنا على السرير، في قاع الرطوبة.

وقت المغيب، والناس خارج البيوت، الصبايا يخرجن في زينتهن الكاملة، وابنتك تسير معهنَّ في الطريق إلى بيت صديقتها، كما زعمت، وهي تحمل كتاباً، لعل بين أوراقه وردة، لعلَّ بيت الصديقة ليس إلا مقهى على رصيف.

منذ أكثر من شهر وهي تخرج قبل الرابعة، تغتنم فرصة نومك، بعد الغداء، ولا تعود حتى بعد السابعة، وأحياناً حتى الثامنة، لقد كبرت أمل، ولم يبق شيء ينفع في تربيتها، والقسوة في مثل هذه السن غير منطقية، أنت عوّدتها منذ البدء على تحقيق رغباتها جميعاً، لم تمنعها مرة واحدة، البنت الثانية لن تكون تربيتها كذلك، ستبدأ معها بالقسوة منذ الصغر.

ولكن لا بُدَّ في كل الأحوال من الإقرار بالواقع، فلعلها قد ذهبت حقاً إلى صديقتها منى، للدراسة معها، فالبيت هنا لا يتسع، غرفتان فقط، هذه واحدة، لك ولزوجتك، والأخرى للأولاد، وهي لكل شيء، للنوم والقعود والدراسة واللعب وتناول الطعام.

وتدخل الزوجة، تحمل القهوة، فيسألها بشيء من الحنان:

– متى تنتهي أعمال المطبخ؟!

فلا تجيب، وتلتقط من ركن في الغرفة جراباً وقميصاً، ثم ترمي بهما في الخزانة، ذات الباب المكسور، ثم تلتفت إلى زوجها، لتقول له بهدوء:

– سامح لديه وظيفة إعراب.

– الأفضل أن يعتمد على نفسه.

فلا تعلق بشيء، فيضيق بها، فيضيف:

– دائماً أقول لك لا تطلبي مني مساعدة الأولاد.

لم تجب، واتجهت نحو الباب، وهي تصيح:

– كلما أفقت من النوم أثرت في وجهي المشكلات، أمل ذهبت إلى صديقتها، سامح يريد كتابة الوظيفة، سناء تبكي ولا ترضع، كلما أفقت، وخاصة بعد الظهر، فلا بُدَّ من أن أغضب، لن أنام بعد اليوم.

وبحّ صوته وسعل، فصمت قليلاً، ثم أضاف:

– لا يكفي أن يبح صوتي، كل يوم خمس ساعات أمام الطلاب، يجب أن يبح في البيت أيضاً.

وكانت قد خرجت، فأخذ رشفة من فنجانه، ونهض، وقال، كأنه يريد إسماعها صوته:

– لا أجد راحة في البيت يجب أن أخرج، لا بُدَّ من خروجي.

ولكنه عاد إلى السرير، فقعد على حافته، وأشعل سيكارة جديدة من بقية سيكارته القديمة، وأخذ يرتشف القهوة.

– إلى أين ستذهب؟!

لقد مضى زمن التسكع في الشوارع، فأنت قد تجاوزت الأربعين، ولن تستطيع التجوال أكثر من ساعة، ثم تعود إلى البيت، وقد تعبت، وقد تجول ساعات وساعات، ولكنك لن تحظى من واحدة بشيء، سوى نظرة ازدراء.

كهل في الأربعين، يتسكع في الشوارع.

ومن ستقصد بعد ذلك، كل من تعرفهم حفنة من المعلمين، همومك همومهم، وهمومهم همومك، الكلام نفسه، ولا شيء آخر جديد.

السينما أقلعت عنها منذ زمن، والمقهى لم تعتده، حتى المذياع عافته نفسك.

هل رجعت أمل؟! لا يعقل، فالساعة السادسة، على أبعد تقدير، وأمل لا ترجع قبل السابعة؟! هكذا عودتك، وأنت لا تزور أحداً ولا أحد يزورك.

ودخل عليه سامح، قائلاً:

– **بابا، الأستاذ شريف جاء.**

– **قل له تفضل.**

وأنت في قميص النوم، وسريرك غير مرتب، وفنجان القهوة إلى جانبك، وبقايا السكائر تملأ المنفضة، ومن النافذة تتسرب أصوات الأقدام والضحكات، ومشجبك يغص بثياب لا تدري كيف تخفيها، باب الخزانة مكسور، وقميص زوجتك معلق على مسمار في الحائط، ماذا ترتب وماذا تترك؟

ويدخل الأستاذ شريف.

شاب في منتصف عمرك، أو فوق ذلك بقليل، شعره مثل شعرك، أيام كنت في سنه، يصافحك بلطف، كأنه يراعي الفارق بينك وبينه في العمر، متواضع، حيي، ولعل هذا ما تكرهه منه.

– **تفضل، تفضل إلى هنا، اقعد على طرف السرير، فهو أفضل.**

ثم التفت إلى سامح:

– **يا سامح، اذهب وأحضر كرسياً.**

وأخذ يشغل نفسه، إلى أن يحضر سامح الكرسي، قدم لشريف سيكارة، أشعلها له، رمى سيكارته هو، أشعل سيكارة جديدة، اعتذر لفوضى البيت، واضطراب الأشياء.

– **من واجبي أنا أن اعتذر، لا أنت، فلقد جئتك من غير موعد وربما في وقت غير مناسب.**

– **لا يا أستاذ شريف.. أهلاً بك في كل الأوقات.**

– **الواقع أني كنت ذاهباً إلى أمسية شعرية، فرأيت أن أمرَّ بك، لتصحبني، ما رأيك؟!**

ضحك، أحسّ أنَّ العتمة قد ملأت الغرفة، أضاء المصباح، عاد إلى كرسيه، نفث دخان سيكارته، مسح بيده شعره القليل المتبقي فوق رأسه، نفث دخان سيكارته ثانية، ثم سأل:

– **كيف ترى الجوَّ خارجاً؟!**

– **جوٌّ خريفي ممتع.**

– **الحقيقة، ماذا أقول لك؟! لقد تناولت غداءً ثقيلاً، ونمت، ثم أفقت فجأة، وأحس أني ما أزال غير يقظ، على الرغم من أني شربت فنجان قهوة، ودخنت سيكارتين، ولذلك، فإني أخشى ألا أفهم شيئاً مما سيقال في الأمسية.**

– **موعد الأمسية بعد ساعة، يمكن أن نتمشى قليلاً في أثنائها، أو نقعد في مقهى.**

مسح رأسه بيده، افتعل سعالاً عميقاً، أطرق قليلاً، وأنقذه سامح، فقد دخل بالقهوة.

وبعد خروج سامح، سأل:

– **كم الساعة الآن؟! أستاذ شريف؟!**

– السادسة إلا ربعاً، هل لديك موعد، أخشى أن...

– لا، لا، أبداً، ساعة يدي لا تعمل.

ونهض، تناول ساعة يده من تحت الوسادة، ضبطها، ووضعها في معصمه.

مرّت فترة صمت، كانا يرتشفان فيها القهوة، وينفثان دخان السكائر، ثم سأله الأستاذ شريف:

– ما رأيك؟! لم تجبني؟!

– في أي شيء؟!

– في الذهاب إلى الأمسية الشعرية.

– آه.. بصراحة أنا مرهق قليلاً، ولا أفكر في الخروج من البيت، والحقيقة أني نادراً ما أخرج بعد الغداء.

وارتشف القهوة، ثم أضاف:

– على كل حال، سنقعد هنا، ونتحدث إلى أن يحين موعد الأمسية.

– في الواقع، نفسي تضيق بالقعود في البيت، ولا سيّما عند المغيب.

– لقد كنت مثلك، ولكن مع مرور الأيام تغير كل شيء.

– تتغير الأشياء، ولكن الإنسان لا يتغير.

– لا يا أستاذ شريف، يبدو لي أن الأمر مختلف، بل هو على العكس.

– في الواقع هذه هي المرة الثالثة أو الرابعة التي أزورك فيها، ولم يمض على تعارفنا أكثر من شهرين، وبالتحديد منذ بداية العام الدراسي، حين تم تعييني مدرساً، وكان حظّي أن أكون في المدرسة التي تدرس فيها أنت، ولكن على الرغم من ذلك فإنَّ لدي شعوراً بأني أعرفك منذ زمن بعيد.

– هذا لطف منك يا أستاذ شريف.

– شكراً، ولكن هذا هو الواقع، فلقد قرأت لك، منذ ثلاث سنوات، وقبل تخرجي في الجامعة، قصائد كثيرة، منشورة في أعداد قديمة، من مجلة "الصباح"، لعلها ترجع إلى عشر سنوات، أو أكثر، وقد أعجبت بشعرك، وحين التقيت بك في المدرسة كنت كمن يلتقي بواقع متحقق، لفكرة كان يتخيلها.

– شكراً، ولكن قصة الشعر، في الحقيقة، أصبحت شيئاً منسياً.

– مستحيل.

– هذه هي الحقيقة، أو هذا هو الواقع كما تقول أنت، فمنذ خمسة عشر عاماً لم أكتب شيئاً، بل إني لم ألتق في تلك المدة بمن يحدثني مثلما تحدثني أنت.

- **بصراحة أنا لا أزورك إلا لأبعث في نفسك ما كان فيها من قبل.**

- **أشكرك.. ولكنك تأخرت كثيراً.**

رشف آخر ما في الفنجان، وأطفأ بقية سيكارته، ثم نهض.

- **سأزورك مرة أخرى.**

- **أهلاً بك دائماً.**

رافقه إلى الباب، ثم رجع إلى السرير، فكَّ ساعة يده، رمى بها تحت الوسادة، أشعل سيكارة، ثم نادى ابنه، فدخلت زوجته، وهي تمسح يديها بخرقة قميئة، لتقول لك:

- **سامح اغتنم فرصة انشغالك بالضيف، وخرج.**

- **إلى أين؟**

- **إلى الملعب، ليحضر مباراة بكرة القدم.**

صمت، نفث دخان السيكارة، ثم قال:

- **لم يبق لدي سوى ثلاث سيكارات، كنت سأرسله ليشتري لي علبة سكائر.**

حملت فناجين القهوة الفارغة، ومضت بها، من غير أن تقول شيئاً، وهو يتملاها، وقبل أن تبلغ الباب، سألها:

- **هل انتهيت من عمل المطبخ؟!**

فوقفت، وأجابت:

- **لا.**

- **وسناء؟!**

- **رضعت زجاجة حليب، ثم نامت.**

- **هي الآن نائمة؟!**

- **نعم.**

أحسّ بشيء من الضيق، خفق صدره، أدام إليها النظر، رغبة مبهمة تضطرب في نفسه، يتمنى لها منفذاً، توقع أن تبادر، فتقول شيئاً، ولكنها كانت تنتظر بصمت، والفناجين بين يديها، وآثار التعب في عينيها، فقال لها ممتعضاً:

- **ضعي الفناجين في المطبخ.**

استلقى في السرير، والسيكارة بين أصابعه.

أصوات أقدام على الرصيف، طالما سحرتك تلك الأصوات، لأجلها اخترت هذا الموقع للسرير، كانت الأصوات عالماً ساحراً، حلقت في جوائه، وتخيلت ما شاء لك الخيال، بل عشت وعانيت ما شاء لك، ثم فقدت ذلك، فأنت هنا في القاع، أحسست في البدء بالبهجة، ثم أحسست بالرطوبة.

من البهجة إلى الرطوبة انتقلت الأشياء جميعاً، تغيرت، وتغيرتَ أنت معها.

قرع الباب، وفتح، ودخلت أمل.

نهض من السرير مضطرباً، زاغت عيناه، فلم يستطع تثبيت نظره عليها، وردة متفتحة وحقل أزهار.

– رجعت مبكرة؟!

– أريد أن أقول لك شيئاً.

ما هذه الفرحة المتألقة في عينيها، هل نالت القبلة الأولى، ستحدثك من غير شك عن الفتى الذي كان معها، هل هو بالخارج ينتظر الإذن له بزيارتك؟! لقد نضجت أمل قبل الأوان، ولكن ما هو موقفك أنت؟! ماذا ستقول لها؟! هل توافق على زواجها المبكر؟! وهل يصدق الشاب في وعده لها؟!

– بابا، سأعمل ممرضة.

ممرضة، لم تفكر مطلقاً بالطب أو التمريض، تخيلتَ في البدء أن تصبح فنانة، ترسم، تكتب الشعر، ثم أقلعت عن ذلك، ولم تتوقع شيئاً ألبتة، كيف لم تفكر في الأمر؟!

– لا بأس يا ابنتي، تحصلين على الشهادة الثانوية، العام القادم، ثم تدخلين مدرسة التمريض.

– لا يا بابا، سأترك المدرسة الآن، فأنا ما أزال في مطلع العام الدراسي، وأمامي سنتان للحصول على الثانوية، وتحتاج مدرسة التمريض إلى سنتين أخريين، سأختصر الطريق.

– كيف؟!

– صديقتي منى، كما تعرف، أبوها طبيب، وقد طلبت منها أن تتحدث إليه، ليوافق على تدريبي في عيادته.

– إذن... ؟

– نعم، كنت في الشهر الماضي أذهب كلَّ يومٍ مساءً إلى عيادته.

ودخلت الأم، وهي تنشف يديها بالخرقة التي غدت مبتلة، ووقفت في الباب لتقول:

– الآن انتهيت من أعمال البيت، هل تريد شيئاً؟!

فأجاب بهدوء:

– لا، لا أريد شيئاً، ولكن اسمعي ما تقول ابنتك.

وأعادت على سمع أمها، ما كانت قد روته لأبيها، وقبل أن تجيب الأم، علا في الداخل صوت سناء، وهي تبكي فقالت:

– أنا لا أعرف شيئاً، تحدثي مع والدك، أنا سأذهب لأرى سناء، فهي تبكي.

واستدارت الأم، وخرجت بهدوء.

وحدك، دائماً وحدك، وحدك وما من أحد يعينك، والعالم من حولك، وأنت مسؤول عن الأشياء كلها، والأشياء تتغير، وتبقى أنت، أو تتغير أنت، وتبقى الأشياء.

– الحقيقة يا ابنتي أنّني فوجئت، ولا أعرف ماذا أقول لك، فأنتِ لم تناقشي الأمر معي من قبل، وعلى كل حال، فأنت عاقلة، وأنا أحمّلك مسؤولية مستقبلك.

– بابا، اسمح لي أن أقول لك، إن راتبي لن يقل كثيراً عن راتبك، على الرغم من أنك تحمل شهادة جامعية، فتخيل كم سيتغير وضعنا الحالي، ويمكن أن أتابع دراستي بعد ذلك.

– أنتِ إذن تفكرين...

– نعم يا بابا، أنا أفكر فيك، في البيت، في أمي وإخوتي، وأنا أرى دارنا الصغيرة، وأعرف أننا هنا في القبو تحت الأقدام، وأنت وحدك، براتبك، لا تستطيع أن تفعل لأجلنا شيئاً.

هذا هو الواقع، أو هذه هي الحقيقة، فما جدوى أن توافق أو تعترض.

– ما رأيك يا أبي؟!

أشعل سيكارة، ثم قال لها:

– خذي من جيب معطفي ثمن علبة سكائر، واذهبي فاشتري لي واحدة، وإلى أن ترجعي، أكون قد فكرت في الأمر.

وخرجت، ومضى إلى سريره، فاستلقى فيه، وعيناه مثبتتان على النافذة الصغيرة، المعلقة في أعلى الجدار، تحت السقف مباشرة، وأخذ يصغي إلى وقع الأقدام على الرصيف فوق.

ثم ذكر الحلم، ولكنه لم يقفز إلى السرير، وظل مستلقياً.

* * *

المحتوى

مقهى ٢٠٠٠

خصام

العصفورة والوزير

الإجهاض

يوم.. لرجل واحد

دعوة خاصة

الدار الجديدة

المرآة

حبات العنب

في وقت مبكر

المعاون الصغير

ثمن صحن الفول

حكاية الولد

رجل بين المسافرين

الممرضة